ورقة علمية

مارك توين وفلسطين

التوصيف الإشكالي والتوظيف الصهيوني

إبراهيم عبد الكريم

آب/ أغسطس 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

جميع إصدارات ومنشورات المركز تعبّر عن رأي كتابها
ولا تعبّر بالضرورة عن رأي مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات..... 1

مقدمة..... 2

من هو مارك توين؟..... 3

السياق العام لرحلة مارك توين 6

تطبيق الرواية التناخية على الجغرافيا الفلسطينية 14

"الفراغ السكاني"..... 16

"الخُواء الحضاري" 19

طريقة خاصة في تناول توين الشؤون المسيحية 26

توصيف للقدس مثير 29

وماذا عن اليهود؟ 32

مظاهر من الاحتفاء الصهيوني بمارك توين 34

كيف استخدم نتنياهو مارك توين؟..... 37

دوافع التوظيف الصهيوني لمارك توين 42

سردية مارك توين في المنظور الديني اليهودي..... 43

تعليلات وانتقادات إسرائيلية لسردية مارك توين 47

خاتمة 53

مارك توين وفلسطين

التوصيف الإشكالي والتوظيف الصهيوني

إبراهيم عبد الكريم[1]

مقدمة:

قام الكاتب الأمريكي الشهير مارك توين Mark Twain بزيارة فلسطين، سنة 1867، ونشر انطباعاته وآراءه عنها في الصحافة وضمن كتاب. واحتفت الصهيونية به على نحو لم يحظَ به كاتب غير يهودي آخر؛ فعلى خلفية مكانته المتميزة، واستناداً إلى ما استخدمه توين، خلال تلك الزيارة، من أوصاف سلبية لطبيعة البلاد ولسكانها العرب ومدنهم وقراهم، وضعه الصهيونيون في صدارة قائمة الشخصيات الفكرية والأدبية المرموقة التي أسدت خدمة كبرى لليهودية، وللصهيونية قبل ولادتها السياسية، عبر ترسيخ مقولات رئيسة أبرزها؛ "أرض الكتاب المقدّس" و"الفراغ السكاني" و"الخواء الحضاري" في فلسطين، قبل أكثر من عقديْن من التأسيس الرسمي للاستيطان الصهيوني هناك.

في هذه الدراسة التي تتناول محوراً خاصاً من نتاجات مارك توين، سيتم التعريف به، في محاولة للإحاطة ببنيته الذهنية وتوجهاته الفكرية وخبراته العملية، وهي أمور يُفترض في أي عمل دراسي خاص بشخصية مهمة أن يُعنى بها، ثم تحرّي السياق العام لرحلته إلى فلسطين، والتعريف بكتابه الذي تضمن توصيفاً إشكالياً للبلاد. وسيجري التوسع بالمفاهيم والمقولات التي طرحها، والتطرق لمظاهر التقدير الصهيوني الكبير له، ومعالجة البُعد الديني اليهودي لسرديته، وتقديم آراء وتقديرات بشأن المسائل التي أثارها.

---

[1] باحث فلسطيني مقيم في سورية، متخصص بالشؤون الإسرائيلية وقضية فلسطين والصراع العربي – الصهيوني. عمل باحثاً متفرّغاً منذ 1980 في مؤسسة الأرض للدراسات الفلسطينية بدمشق، وترأس التحرير في هذه المؤسسة خلال الفترة 1994–2021. قدّم محاضرات في مؤسسات أكاديمية وبحثية، داخل سورية وخارجها، وهو عضو اتحاد الكتّاب العرب: جمعية البحوث والدراسات، منذ 1995، وعضو اتحاد الكتّاب الفلسطينيين منذ 1980. نُشر له 25 كتاباً، ومئات الأبحاث والدراسات.

وغنيّ عن البيان أن رحلة مارك توين إلى فلسطين تُعدّ حالة استشراقية تطبيقية، لما تنطوي عليه من معايير وسمات تجعلها تندرج ضمن هذا الإطار، سواء من حيث الخصائص الثقافية الغربية أم لجهة الهوية الفردية للكاتب توين. ونُشير إلى أن هذه الدراسة تستند، أساساً، إلى مواد إسرائيلية (بالعبرية خصوصاً)، تقتضيها الحالة، وهي مواد قد تشمل مفاهيم ومصطلحات صهيونية تضليلية مكشوفة. كما نُشير إلى أنه سترد—لاعتبارات بحثية—كلمات من اللغة المسماة "العبرية"، التي تُعدّ لغة هجينة، غالبيتها مستمدة، مسروقة، من اللغتين الكنعانية والآرامية، اللتين تنتميان إلى المنطقة العربية وحضارتها العريقة.

من هو مارك توين؟

مارك توين

اسمه الأصلي، "صموئيل لانغورن كليمنس Samuel Langhorne Clemens"، ولد في 1835/11/30، في قرية فلوريدا Florida بمقاطعة مونرو Monroe، في ولاية ميسوري Missouri جنوبي الولايات المتحدة. انتقلت أسرته إلى بلدة هانيبال Hannibal الصغيرة، على ضفاف نهر المسيسيبي Mississippi River في ولاية ميسوري، وأمضى فيها معظم طفولته، من سن 4–18 عاماً. كان والده، جون John، يمتلك متجراً، وعمل محامياً وقاضياً وفي العقارات، وتوفي بشكل مفاجئ سنة 1847. وفي سن الثانية عشرة، اضطر صموئيل إلى المساعدة في إعالة أسرته، فترك المدرسة وبدأ العمل كمساعد في الطباعة، في صحيفة "هانيبال كوريير The Hannibal Courier-Post" المحلية. وفي سن الخامسة عشرة، واصل عمله في الطباعة وصار محرراً لصحيفة "هانيبال ويسترن يونيون The Hannibal Western Union". وفي سن الحادية والعشرين، بعد مغادرة هانيبال، بدأ في دراسة الملاحة البحرية، وبحلول سن الثالثة والعشرين صار يُبحر في البواخر على طول نهر المسيسيبي، وكانت هذه هي الوظيفة التي يحلُم بها، ولكنه غادرها في سن الخامسة والعشرين، عندما اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية. وفي أثناء عمله

كمساعد ملّاح سنة 1863، تبنى صموئيل الاسم الأدبي "مارك توين"، وهو مستقى من مجال الملاحة البحرية؛ "نداء البحار الذي يقيس عمق المياه".[2]

ومن الإضاءات على حياة مارك توين؛ في سن العاشرة كان رئيساً لمجموعة من الأولاد، اعتادوا الهروب من المدرسة والقيام برحلات استكشافية على طول ضفة نهر المسيسيبي وفي الكهوف المظلمة. وفي سن الخامسة عشرة ساعد شقيقه الأكبر أوريون Orion في تحرير جريدته الحولية ذا أنيفرسري جورنال The Anniversary Journal. وعند اندلاع الحرب الأهلية سنة 1861، قاتل مارك توين كضابط في الجيش الاتحادي، وبعد بضعة أسابيع عُيّن سكرتيراً شخصياً لأخيه أوريون حاكم ولاية نيفادا. وبعد الحرب، هاجر إلى غربي الولايات المتحدة وغيّر مهنته؛ فكان عامل مناجم للفضة في نيفادا، وعامل مناجم ذهب في كاليفورنيا، ومراسلاً متجولاً في خدمة بعض الصحف الميدانية في كاليفورنيا. وفي سنة 1884 أصبح ناشراً في قاموس ويبستر Webster، وفي سنة 1866 بدأ حياته المهنية كمحاضر، واستمر فيها بشكل متقطع لعقود. ولكن بعد فترة، انخرط في أعمال الطباعة، وغرق في ديون ثقيلة وأفلس سنة 1894، لذلك شرع في جولة محاضرات عبر أمريكا وأوروبا، وبعد عامين سدّد ديونه. وواصل مارك توين الكتابة، ولكن المجهود المضني ووفاة زوجته وابنه الطفل ولاحقاً ابنتيه الشابتين أضرّ بصحته قبل الأوان، وفي سنواته الأخيرة، غالباً ما كان يقضي وقتاً مستلقياً على سريره، ويملي ذكرياته على سكرتيرته. حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعات ييل Yale سنة 1901، وميسوري سنة 1902، وأوكسفورد Oxford سنة 1907. وتوفي في ريدينغ Redding، كونيتيكت، في 1910/4/2. وقد ظهرت كتاباته جميعها في سنة وفاته في 17 مجلداً، غالبيتها وصفت بأنها مليئة بروح الدعابة النابضة بالحياة.[3]

---

[2] ليئور كين لي، زيارة إلى مدينة طفولة مارك توين: مسار للتنزه في هانيبال بولاية ميسوري، موقع يائير تيوليم، انظر: http://tiulim.net (باللغة العبرية)

ליאור קן לי، ביקור בעיר ילדותו של מארק טוויין: מסלול טיול בעיר האניבל, מיזורי

[3] أورئيل أوفيك، أوقيانوس אוקיינוס، عن معجم **أوفك لأدب الأطفال**، موقع هارباتكا، 1985، انظر: http://harpatka.net (باللغة العبرية)

عُرفت عن مارك توين كثرة تنقلاته وجولاته؛ ففي الثامنة عشرة من عمره، زار نيويورك وفيلادلفيا وسانت لويس وسينسيناتي. ودفعت الحرب الأهلية به إلى الاتجاه غرباً حيث سافر إلى ولاية نيفادا وجرّب حظه بحثاً عن الثروة في مدينة فيرجينيا سيتي (غرب)، حيث حاول العمل والاستثمار في مناجم الفضة الغنية في تلك المنطقة، ولكن محاولاته تلك باءت بالإخفاق، وتعويضاً عن ذلك عاد إلى الصحافة في سنة 1863، حيث وجد عملاً في جريدة محلية تدعى "تيريتوريال إنتربرايز Territorial Enterprise" (المشروع الإقليمي)، ونشر فيها أولى قصصه في 1863/2/3 مستخدماً فيها الاسم المستعار "مارك توين" الذي أصبح لصيقاً به طوال حياته. وفي سنة 1864 انتقل إلى سان فرانسيسكو بولاية كاليفورنيا على الساحل الغربي الأمريكي، حيث استمر في ممارسة العمل الصحفي، ولكن أول نجاحاته الأدبية جاء عندما نشر، في 1865/11/18، قصته الطويلة "الضفدع القافز المشهور في مقاطعة كالافيراس The Celebrated Jumping Frog of Calaveras County" في جريدة "نيويورك ساترداي برس The New York Saturday Press". وفي السنة التالية، سنة 1866، بدأ توين نشاطاً جديداً؛ كمراسل متجول للصحف الأمريكية، حيث قام بزيارة جزر هاواي في المحيط الهادئ، وبعدها قام برحلة مطولة إلى الشرق سنة 1867، زار خلالها بلاد الشام، ووصف رحلته هذه في كتابه الشهير "الأبرياء في الخارج INNOCENTS ABROAD" الذي صدر سنة 1869. وتخلَّل طواف توين سنة 1870 زواجه من "أوليفيا لانغدون Langdon Olivia" التي كانت تنتمي إلى أسرة ثرية وليبرالية، وسكن الزوجان في مدينة بوفالو Buffalo بولاية نيويورك، وانتقلا في السنة التالية إلى مدينة هارتفورد Hartford عاصمة ولاية كونيتيكت Connecticut، التي قضى فيها بقية حياته، وأنجب الزوجان هناك أربعة أبناء. وفي هارتفورد كتب توين أهم أعماله الروائية. وثمة جانب آخر من حياة توين بالإضافة إلى الكتابة، هو ولعه بالبحث العلمي، إذ اعتاد أن يقضي ساعات طويلة في مخابر كل من "نيكولا تسلا Nikola Tesla" و"توماس أديسون Thomas Edison"، أهم مخترعي ذلك الزمان، يراقب أعمالهم وأبحاثهم. وتوجد ثلاث براءات اختراع مسجلة في أمريكا باسمه، وكان أحد الأفلام السينمائية الأولى التي صورها أديسون هي فيلم عن مارك توين.[4] ومما ذُكر عنه أيضاً أنه كان صديقاً للعديد من الرؤساء والفنانين ورجال الصناعة

[4] مارك توين (1835—1910)، موقع محطة أخبار سورية، 2011/12/11، انظر: http://www.sns.sy/ar/node/31072

وأفراد الأسر المالكة الأوروبية، ووُصف بعد وفاته بأنه "أعظم الساخرين الأمريكيين في عصره"، كما لقّبه "وليم فوكنر William Faulkner" بأنه "أبو الأدب الأمريكي".[5]

وعلى الرغم من أن فلسفة توين كانت معقدة بشكل واضح، فلا شك في أن نوعية تفكيره تركت بصماته على الأدب الأمريكي. وقد وُصف كتابه "مغامرات هاكلبري فين The Adventures of Huckleberry Finn"، بأنه "الرواية الأمريكية العظيمة"، حتى أن المؤلف "إرنست همنجواي Ernest Hemingway"، زعم أن "كل الأدب الأمريكي الحديث يأتي من هذا الكتاب"،[6] الذي يُعد كتاباً للأطفال، ويتعامل مع موضوع خطير للغاية، وهو وضع العبيد السود في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر.[7]

السياق العام لرحلة مارك توين:

جاءت رحلة مارك توين إلى بعض بلدان أوروبا وشرق المتوسط، ومنها فلسطين، في ظروف عامة أتاحت لهذه الرحلة أن تتم دون تعقيدات سياسية وإدارية وميدانية. ففي ظلّ استقرار الاتفاقية الأمريكية العثمانية وتطبيع العلاقات الديبلوماسية بين الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية سنة 1832، تمّت إزالة الحاجز البيروقراطي أمام هذه الرحلة.[8]

ومن النواحي التقنية، بعد قرون من الركود تأثرت فلسطين والمنطقة العربية عموماً بالتطورات الغربية في مجالات عدة؛ منها اختراع السفن البخارية التي حلّت محل المراكب الشراعية وأتاحت السفر حول العالم، ولم

---

[5] نبذة عن مارك توين، موقع كتب، انظر: https://www.kutub-pdf.net

[6] مارك توين، موقع storyboardthat، انظر:
https://www.storyboardthat.com/he/biography/%D7%9E%D7%A8%D7%A7-%D7%98%D7%95%D7%95%D7%99%D7%9F (باللغة العبرية)

[7] في أعقاب مارك توين: ماذا سيقول توين اليوم عن بنيامين؟، موقع بنيامين أرض الأنبياء والينابيع، 2017، انظر:
http://www.gobinyamin.org.il (باللغة العبرية)
בעקבות מארק טוויין: מה טוויין היה אומר היום על בנימין?, בנימין ארץ נביאים ונביעות

[8] حين ملول، مارك توين في فلسطين.. "أرض ميئوس منها، كئيبة ومكسورة القلب"، موقع المكتبة الوطنية الإسرائيلية، 2018/11/5، انظر:
https://blog.nli.org.il/en/mark-twain-in-palestine-a-hopeless-dreary-heart-broken-land/?utm_source=activetrail&utm_medium=email&utm_campaign=%20Newsletter%20English%2008.11.2018&_atscid=3_2269_139355550_9734814_0_Tz3j3ffff3da8a2222a (باللغة العبرية)

يعُد السياح تحت رحمة الرياح والأشرعة، وفتحت عالماً جديداً بالكامل من الرحلات إلى الأماكن التي كانت تعدّ سابقاً وجهات يصعب الوصول إليها. وبخصوص فلسطين، حسّنت هذه السفن إمكانية الوصول إلى البلاد، وجرى فتح خطوط ملاحية للسفن البخارية التي خرجت من الموانئ الرئيسية للبحر المتوسط إلى شواطئ البلاد وجلبت معها الحجاج. وجعلت الشركات التجارية في فلسطين أقرب إلى شواطئ الغرب، وصار الوصول إليها ممكناً، وآمناً، ورخيصاً نسبياً.[9]

ولوحظ أنه خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت فلسطين مركز اهتمام عالمي متزايد، وعكست البعثات الأثرية والتنقيبات والاكتشافات بعض وجوه هذا الاهتمام، وغدت فلسطين نقطة استقطاب لعلماء الآثار والجغرافيين ورجال الدولة والشخصيات الدينية والحجاج المسيحيين والسياح، ومن بين أولئك الذين أتوا لاستكشاف البلاد أعضاء في "صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund" البريطاني، الذي تأسس سنة 1864 وباشر مهمته في فلسطين اعتباراً من سنة 1865.[10]

تمتعت فلسطين بجاذبية للزوار والسياح الأوروبيين والأمريكيين وسواهم، على خلفية وجود مواقع مسيحية وأثرية قديمة فيها،و لكونها حسب تصور هؤلاء "أرض الكتاب المقدس"، أي المكان الذي وقعت فيه روايات العهديْن القديم والجديد. وعلى الرغم من الاستمرارية التاريخية للحج المسيحي إلى فلسطين منذ القرن الرابع الميلادي، إلا أن فترة العقود الخمسة الأخيرة من الحكم العثماني "برزت كفترة غير عادية، حيث ازدهرت الظاهرة بشكل مثير

---

[9] كوبي كوهين – هتاف ودورون بار، "القدس بين الحج والسياحة: التقليد والتجديد بين الزوار المسيحيين في العصر العثماني المتأخر"، دار نشر ماغنس برس، الجامعة العبرية، القدس، 2010، ص 126، انظر:

https://lisa.biu.ac.il/files/lisa/shared/yrvshlym_byn_tslyynvt_ltyyrvt.pdf (باللغة العبرية)

קובי כהן־הטב ודורון בר، ירושלים בין צליינות לתיירות: מסורת וחידוש בקרב המבקרים הנוצרים בשלהי התקופה העותמנית، הוצאת מאגנס ומכון שכטר למדעי היהדות (2011)

[10] زئيف جاليلي، الخريطة الكبيرة للأرض الخالية، موقع زئيف جاليلي، 2004/10/15، انظر:

http://www.zeevgalili.com/2004/10/325

تم التحديث في كانون الثاني/ يناير 2016 (باللغة العبرية)

זאב גלילי، המפה הגדולה של הארץ הריקה

من حيث النطاق ومن حيث التنوع العرقي".[11] ويبدو أن العوامل التقنية والسياسية وتعاظم النفوذ الأجنبي في المنطقة أسهمت في ذلك.

وبشأن الاهتمام الأمريكي العام بفلسطين، استُمدت صورة الأرض المقدسة في أمريكا في القرن التاسع عشر من المشاعر الدينية والثقافية، بتشجيع من مجموعات رئيسية، تشمل المبشرين والسياح وعلماء الآثار وعلماء الكتاب المقدس والمستوطنين والمسؤولين القنصليين. وكانت لكل منهم دوافع مختلفة للذهاب إلى فلسطين، وتأثرت بمصالح الدول الغربية والتحسينات في النقل وإمكانية الوصول.[12]

ومما يُذكر أن الحجاج الأمريكيين الأوائل كانوا قد وصلوا إلى فلسطين في وقت مبكر من سنة 1819، على الرغم من الصعوبات الجمّة، وأخذت موجات الحج إليها تزداد، وأسهمت في تكوين معلومات عن البلاد، "وفي عصر طُلب فيه من كل بروتستانتي أمريكي النموذجي أن تكون لديه معرفة جيدة بالكتاب المقدس، عَرف الكثير من الأمريكيين الجغرافيا الأساسية وأسماء المواقع التاريخية للأراضي المقدسة حتى قبل وصولهم إليها".[13]

وقد اعتاد العديد من أولئك الذين انطلقوا في الرحلات تسجيل انطباعاتهم وذكرياتهم، وكانت الكتابة والرسوم من الطرق الشائعة في هذا التسجيل، وتطورت عملية التوثيق بصورة نوعية بعد شيوع استعمال الكاميرا منذ أربعينيات القرن التاسع عشر.

باخرة كويكر سيتي Quaker City

[11] كوبي كوهين – هتاف ودورون بار، القدس بين الحج والسياحة. (باللغة العبرية)

[12] أرض الأحلام: المسافرون الأمريكيون إلى الأراضي المقدسة في القرن التاسع عشر، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، آذار/ مارس 2013، انظر: http://web.nli.org.il/sites/NLI/English/digitallibrary/gallery/of israel/Pages/dreamland.aspx (باللغة العبرية)

[13] حين ملول، مارك توين في فلسطين.. "أرض ميئوس منها، كئيبة ومكسورة القلب"، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، 2018/11/5. (باللغة العبرية)

وفي هذا المنحى سار مارك توين منذ تفكيره بالرحلة، فبعد أن اعتمدت صحيفة ألتا Alta، في كاليفورنيا، في كانون الأول/ ديسمبر 1866، مارك توين مراسلاً خاصاً لها، وافقت في وقت مبكر من سنة 1867 على دفع تكاليف رحلة له إلى أوروبا وآسيا، ولكن سرعان ما تمّ تغييرها إلى أوروبا والأرض المقدسة.[14] وقبل مغادرته، وقّع توين عقداً مع الصحيفة لكتابة إحدى وخمسين مقالة قصيرة حول الرحلة، ودفع ناشر الصحيفة له 1,250 دولاراً أمريكياً لنفقات السفر، وفي المقابل طُلب منه إرسال قوائم ومعلومات وانطباعات عن أسفاره. وبذلك ضمن توين تمويل رحلته.[15]

كانت هذه الرحلة أول جولة منظمة للمواطنين الأمريكيين على متن باخرة "كويكر سيتي Quaker City"،[16] وهي باخرة تمّ تحويلها إلى سفينة سياحية، بعدما كانت قبل سنوات مستأجرة من قبل جيش الاتحاد كسفينة حربية خدمت في الحرب الأهلية الأمريكية،[17] التي وقعت كما هو معروف في الفترة 1861–1865، والتي تمكن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة أبراهام لينكولن Abraham Lincoln من إخمادها بإعادة الولايات التي انفصلت عن الاتحاد بقوة السلاح، وأورث الهدوء والاستقرار لخلفه الرئيس أندرو جونسون Andrew Johnson 1865–1869، وكانت قد خرجت باخرة "كويكر سيتي" خلال عهده في رحلتها. وبمعايير زمانها كانت هذه الباخرة فاخرة، وعلى متنها أبحر توين، الذي كان يبلغ من العمر 31 عاماً، من نيويورك في 1867/6/8، بصحبة مجموعة من الحجاج الأمريكيين والسياح الأثرياء، وقد بلغ عددهم نحو 40 شخصاً. وكانت شركة جيمس كوك James Cook، هي التي نظمت الرحلة، وضمنت كل شيء؛ التذاكر، والدفع في الفنادق، ونفقات الطريق، وحتى الدفع للمرشدين وغير ذلك. ومع أنه لم يتمّ قبول هذه الطريقة حتى

---

[14] أرض الأحلام: المسافرون الأمريكيون إلى الأراضي المقدسة في القرن التاسع عشر، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، آذار/ مارس 2013. (باللغة العبرية)

[15] مايا دواني، "حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل،" عن مجلة **طبيعة الأشياء**، ج 1، موقع صحيفة **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31، انظر: https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3834253,00.html (باللغة العبرية)

מיה דואני، מסע ההשמצה של מארק טוויין בארץ ישראל - טבע הדברים

[16] المرجع نفسه.

[17] حين ملول، مارك توين في فلسطين.. "أرض ميئوس منها، كئيبة ومكسورة القلب"، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، 2018/11/5. (باللغة العبرية)

ذلك الوقت، وعُدّت غير مربحة لوكلاء السفر أو أصحاب الفنادق، ولكن نجاحها المفاجئ وربحها الكبير والعمل الدؤوب الذي قدمته للجميع في تلك الرحلة، قضى على الانتقادات الموجهة إليها.[18]

عبرت سفينة "كويكر سيتي" المحيط الأطلسي، وقامت برحلة طويلة في البحر المتوسط، شملت التوقف في فرنسا، وإنجلترا، وشواطئ دول شمالي إفريقيا، وإيطاليا، والجزر اليونانية، وشواطئ روسيا، والبحر الأسود، وتركيا، والأرض المقدسة.[19]

ومنذ اللحظة التي وصل فيها مارك توين على سطح السفينة، استخدم قلمه السليط للجلد في كل اتجاه. فمثلاً أشار إلى قاعة صلاة السفينة التي تجمّع فيها الحجاج، وكتب: "أطلق المصلون على هذا الصالون "الكنيس اليهودي" العائم". ويبدو أن توين لم يتأثر بالمزاج الموجود على متن السفينة. وكتب: "كانت رحلة المتعة رحلة جنازة دون جثة". وسرعان ما استاء رفاقه، الأتقياء، من الطريقة التي اختار بها اجتياز البحر: القمار مع الركاب الأصغر سناً، والشرب، وتدخين الغليون، وأخذ اسم الرب في الاعتبار فقط عندما شعر أن السفينة قد تأخرت لأسباب غير معروفة.[20]

وكان توين الوحيد ضمن مجموعة الركاب الذين لم ينضموا إلى الرحلة لأسباب سياحية دينية. وكصحفي، كان يراقب من الخطوط الجانبية، ويضع انطباعاته في الكتابة بأسلوبه المتهكِّم، وهكذا كانت توصيفات توين مشبعة بالسخرية.[21]

---

[18] موطي حاي إفراتي (دليل)، رحلة الأبرياء إلى المدينة المقدسة – الجزء الثاني، موقع رابطة المرشدين في إسرائيل، 2017/4/1، انظر: http://itga.org.il (باللغة العبرية)

מוטי חי אפרתי (מורה דרך)، מסע התמימים לעיר הקודש- חלק ב' מאת, אגודת מורי הדרך בישראל

[19] مايا دواني، "حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31. (باللغة العبرية)

[20] حين ملول، مارك توين في فلسطين.. "أرض ميئوس منها، كئيبة ومكسورة القلب"، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، 2018/11/5. (باللغة العبرية)

[21] أوري كتسير، اكتشاف مخطوطة من كتاب غير معروف لمارك توين، موقع مدونة أوري كتسير، 2010/3/30، انظر: http://www.aplaton.co.il/story_595 (باللغة العبرية)

אורי קציר، התגלה כתב יד של ספר בלתי ידוע מאת מארק טוויין

شملت الرحلة إلى المنطقة العربية، في شرق البحر المتوسط، المسار التالي: النزول قبالة سواحل لبنان، وزيارة بعلبك، ودمشق، وبانياس، ومنابع الأردن ووادي الحولة، وبحيرة طبرية ومحيطها، والمجدل، وحطين، وجبل طابور، والناصرة، وعيمك يزرعيل (مرج ابن عامر)، ونابلس، وقبر يوسف، وبئر يعقوب، وشيلو، والقدس ومحيطها، وغور الأردن، وبيت لحم، والرملة، ويافا، والعودة من يافا في البحر المتوسط، يوم 1867/11/19، أي بعد أقل من ستة أشهر من بداية الرحلة التي كانت زيارته خلالها إلى فلسطين نحو ثلاثة أسابيع.[22]

وكان وكلاء السفر قد صمموا الرحلة السياحية، وتعمدوا أن تمرّ عبر نقاط من شأنها أن تثير اهتمام الحجاج الأمريكيين.[23] ومما ذُكر عن هذه الرحلة أنه عندما وصل هؤلاء الحجاج إلى فلسطين لم يرافقوا كلهم مارك توين إلى المناطق التي زارها، بل اختار ثمانية من أعضائها فقط القيام برحلة على ظهور الخيل والحمير من سورية إلى البحر الميت، وكان توين أحدهم.[24] ومنذ لحظة وصوله إلى الأرض المرغوبة، سارع توين، في تناقض صارخ مع بقية رفاقه المسافرين، إلى رفض التقوى الدينية التي أظهرها المشاركون الآخرون في الرحلة، ووفقاً لتقاريره، "انتهز أصدقاؤه كل فرصة للبكاء والصلاة بشكل هستيري، لكنهم لم ينسوا السرقة قدر استطاعتهم".[25]

---

[22] عرض كتاب "**رحلة مباهج إلى الأرض المقدسة** מסע תענוגות לארץ הקודש"، انظر:
https://www.kotar.co.il/KotarApp/Index/Book.aspx?nBookID=98744374 (باللغة العبرية)

[23] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، موقع أصدقاء جورج، 2014/11/1، انظر: http://www.hahem.co.il (باللغة العبرية)
רותם מלנקי، פוסט אורח: מפריחים את השממה، החברים של ג'ורג'

[24] تعريف بكتاب مارك توين، **رحلة مباهج في الأرض المقدسة**، ترجمة عوديد بيلد، موقع تبوز، 2013/4/18، انظر:
http://www.tapuz.co.il/blogs/viewentry/2527860 (باللغة العبرية)
מארק טוויין، מסע תענוגות בארץ הקודש، תרגום מאנגלית עודד פלד

[25] تحقيق: "الشمس كانت ستتخطى أرض إسرائيل لو كانت لديها القدرة على الاختيار"، المكتبة الوطنية الاسرائيلية، انظر:
http://web.nli.org.il/sites/NLI/Hebrew/library/reading_corner/Pages/twain.aspx (باللغة العبرية)
"השמש הייתה מדלגת על ארץ ישראל, לו הייתה יכולת הבחירה בידה"

كتاب رحلة مارك توين (طبعات مختلفة)

ملاحظة: بلغ عدد أغلفة الطبعات المختلفة لكتاب "الأبرياء في الخارج" نحو 65 غلافاً، حتى سنة 2010.

نُشرت الأعمدة، المقالات، التي كتبها مارك توين عن الرحلة في صحيفة ألتا كاليفورنيا، الواحدة تلو الأخرى، وحققت نجاحاً كبيراً، بسبب أسلوبها الساخر. كما نُشرت أجزاء من الرحلة في نيويورك تريبيون New York Tribune ونيويورك هيرالد New York Herald. وأدى النجاح الكبير الذي حققته إلى اتخاذ قرار بتجميعها معاً في كتاب.[26]

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في 1869/7/20 بعنوان؛ "الأبرياء في الخارج أو تقدم الحاج الجديد The Innocents Abroad, or The New Pilgrims' Progress"، ومن مرادفات الأبرياء Innocents؛ الطاهرون، والبسطاء، والسُذّج، والحمقى، حيث كان يتهكم توين في كتابه على رفاقه

[26] وري كتسير، اكتشاف مخطوطة من كتاب غير معروف لمارك توين، مدونة أوري كتسير، 2010/3/30. (باللغة العبرية)

في الرحلة، ويتحدث عن سذاجتهم وجهلهم. وكان هذا هو الكتاب الثاني لتوين، وأصبح الأكثر مبيعاً ضمن أعماله التي نُشرت خلال حياته، فقد بلغت الطبعة الأولى من هذا الكتاب 70 ألف نسخة، بيعت كلها في أقل من عام. وصدرت بعدها طبعات أخرى له، وكان عدد نُسخها يفوق أي كتاب رحلة أمريكيّ قبله. فقد بلغ عدد أغلفة طبعاته المختلفة حتى سنة 2010 نحو 65 غلافاً، وصار أشهر كتاب رحلة أمريكيّ.[27]

وعلى الرغم من شهرة كتابيْه "مغامرات توم سوير The Adventures of Tom Sawyer" و"مغامرات هاكلبري فن The Adventures of Huckleberry Finn"، إلا أن كتابه "الأبرياء في الخارج" هو الذي جلب إلى توين لأول مرة شهرة دولية.[28]

من الصعب فهم سبب نجاح هذا الكتاب، حيث كان هناك قراء أُصيبوا بالذهول؛ لأن توين أرسل روح دعابة إلى الكتاب المقدس والاحتفالات الدينية المسيحية. ومع ذلك، سار توين على الخط الفاصل بين الإيمان والإبداع، وبذلك جنّب نفسه الحرمان الديني. وربما يرجع نجاح الكتاب إلى حقيقة أنه أكَّد "مفهوماً وطنياً" كان يحمله العديد من الأمريكيين في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، حيث قدّم توين حوض البحر المتوسط، الذي كانت الأرض المقدسة جزءاً منه، على أنه مهد الحضارة، ولكن بشكل لا يقل أهمية عن تجسيد انحطاط الحضارة أو موتها. ومع ذلك، إن نجاح الكتاب لم يكن فقط بسبب تعزيز المشاعر الوطنية الأمريكية، ولكن أيضاً بسبب أسلوبه الفكاهي الذي يناسب نوعاً جديداً من السياحة، التي كان يقوم بها أبناء الطبقتيْن الوسطى والعليا الذين ازدهروا بعد أن اجتازوا بوتقة الحرب الأهلية الأمريكية، وانطلقوا في رحلة بدافع الفضول والشعور بالتفوق، وليس بالضرورة

---

[27] مايا دواني، "حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31. (باللغة العبرية)

[28] أرض الأحلام: المسافرون الأمريكيون إلى الأراضي المقدسة في القرن التاسع عشر، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، آذار/ مارس 2013. (باللغة العبرية)

من أجل تعزيز المشاعر الدينية. وأصبحت السياحة من هذا النمط نوعاً من العدوى في الأجيال الثلاثة التي تلت نشر الكتاب، وعاملت هذا الكتاب كدليل سياحي جديد.[29]

يتألف النص الإنجليزي الأصلي لكتاب "الأبرياء في الخارج" من 60 فصلاً في 651 صفحة، ويتحدث فيه مارك توين عن زيارته لفلسطين في 11 فصلاً، من فصل الـ 46 في ص 478، إلى آخر فصل الـ 56 في ص 608. ويبدأ الكتاب من ميناء نيويورك وصولاً إلى فلسطين، ثم العودة. وجاء في مقدمته المقتضبة (صفحة واحدة): "أعتقد أنني أرى الأشياء بعين محايدة، وإنني على يقين من التزامي جانب الصدق على الأقل سواء تصرفت بحكمة أم لا". وعلى امتداد معظم توصيفه للرحلة في فلسطين، تعمّد توين أن يجعل كتاباته الوصفية مغايرة للغة كتّاب أدب الرحلات الآخرين في ذاك الزمن، وكان نقده لا يطرح بدائل بنَّاءة.

تطبيق الرواية التناخية على الجغرافيا الفلسطينية:

على غرار الصورة التي رسمها عن فلسطين رجال الدين والرحالة، المسيحيون واليهود، بأنها "أرض الكتاب المقدس"، تبنّى مارك توين رواية "التناخ"، العهد القديم = توراة תורה + أنبياء נביאים + كتب כתובים، وقام بإجراء مطابقة (قسرية) لها على الجغرافيا الفلسطينية، وبدت الرواية التناخية حول اليهود وما يسمى "أرض إسرائيل التاريخية" مسلّمات لديه. وهي عملية عُنيت الحركة الصهيونية منذ ولادتها بعد ثلاثة عقود من رحلته بتقديمها كحقيقة لا جدال فيها.

في الفصل الأول من القسم الخاص بزيارته فلسطين، الفصل 46 في كتاب "الأبرياء..."، التي بدأت من موقع "دان" (تل القاضي) في أقصى الشمال الشرقي للبلاد، كتب: بدأت الأسماء التاريخية تحتشد

---

[29] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" عن مجلة **طبيعة الأشياء**، ج 2، **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3، انظر: https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3835898,00.html (باللغة العبرية)
מיה דואני، מארק טווין ומסע ההלוויה הגדול לארץ הקודש - טבע הדברים

أمامنا؛ دان، وباشان، وبحر الجليل. وراح توين يورد أسماء وروايات حول أشخاص وأمكنة من "التناخ": أشكول، ويربعام، وأورشليم، وسدوم، ويوشع، ودبورة، وباراق، ويافين، وسيسرا، وياعيل، وزبولون، ونفتالي، وأشر، واستشهد توين بروايات حولها، كما روى عن البلاد وفق ذلك، وربطها بمن أسماهم "الإسرائيليين القدماء".[30] وفي الفصل التالي، كتب توين عن قرية جب يوسف في الجليل، من منظور "التناخ"، وأورد قصة يوسف عليه السلام كما وردت فيه، حيث ألقى أخوة يوسف أخاهم في بئرها.[31] وفي الفصل اللاحق، تناول توين تاريخ طبرية، حسب "التناخ" أيضاً، ذاكراً أنها "انعقد فيها آخر سنهدرين Sanhedrin (المجلس الأعلى لليهود القدماء)، وأنها كانت على مدى 300 عام حاضرة اليهود في فلسطين، وإحدى المدن الأربع المقدسة عند الإسرائيليين".[32] وبالمنوالية ذاتها، كتب عن مدينة يزرعيل وملك السامرة آخاب وعن السامرة وجنين وشيكيم، في الفصل 51.[33] وذكر في الفصل 52 أن شيكيم أقام بها النبي يعقوب ويشوع عليهما السلام. وفي آخر هذا الفصل كتب: "أورشليم التي أقام فيها سليمان وكلّم فيها أبرام ربه".[34] وحول القدس، التي كتب عنها في الفصل 54، ادعى أن مسجد عمر (تسميته للأقصى) بُني فوق هضبة موريا مكان الهيكل، وأن أبرام (إبراهيم عليه السلام) قدّم ابنه قرباناً لله على الصخرة. كما أسهب توين في وصفٍ يُسمى "الهيكل القديم"، زاعماً أن عدداً كبيراً من أعمدة هذا الهيكل تمثل دعامات للمسجد الأقصى. كما تطرق إلى ما أسماه "القناة التي أمر سليمان بحفرها"، وإلى "جبل صهيون" و"جدران الهيكل"،[35] وفق التقديرات اليهودية المتداولة.

يُشار هنا إلى أنه في عهد توين لم يَنبرِ لتفنيد الرواية التناخية باحثون ومؤرخون وآثاريون، ولم تظهر محاولات مطبوعة لإعادة النظر فيها، أو دحض مطابقتها على الجغرافيا الفلسطينية، وهو الأمر الذي

---

[30] مارك توين، **الأبرياء في الخارج أو تقدم الحاج الجديد** (الولايات المتحدة: الشركة الأمريكية للنشر، 1869)؛ انظر:
Mark Twain, *THE INNOCENTS ABROAD, or The New Pilgrims' Progress* (United States: American Publishing Company, 1869).

النسخة الإلكترونية المعتمدة في الاقتباس (طبق الأصل عن النص الأصلي):
Mark Twain (Samuel Clemens), *The Innocents Abroad*, CHAPTER XLVI, p. 478, https://www.gutenberg.org/files/3176/3176-h/3176-h.htm (Updated: 25/5/2018)

[31] Ibid., CHAPTER XLVII, p. 488.
[32] Ibid., CHAPTER XLVIII, p. 503.
[33] Ibid., CHAPTER LI, p. 537.
[34] Ibid., CHAPTER LII, p. 551.
[35] Ibid., CHAPTER LIV, p. 574.

أخذ يظهر بعد عقود من رحلة مارك توين إلى فلسطين، على ضوء المعطيات الأثرية والأصول المنهجية للأبحاث التاريخية.

"الفراغ السكاني":

بالرغم من الحقائق التاريخية الدالة على أن فلسطين استمرت آهلة بالسكان منذ عصور موغلة في القدم، وأنه في القرن التاسع عشر كانت فيها مئات التجمعات البشرية، المدينية والقروية والبدوية، ولكن مارك توين لم يبال بهذه الحقيقة، وكوّن في رحلته مشاهد على مقاس مزاجه التهكّمي.

وكمثال؛ فيما كانت منطقة الجليل، خلال فترة زيارته لها، حسب مصدر بحثي إسرائيلي، تحتوي نحو 155 قرية عربية، ويعيش فيها نحو 66,045 نسمة، ومنها 74 قرية في الجليل الأعلى فيها 33,470 نسمة، و81 قرية في الجليل الأسفل فيها 32,575 نسمة،[36] تجاهل مارك توين هذه الكثافة السكانية الكبيرة نسبياً للمنطقة، وكتب في الفصل الثالث من القسم الخاص بزيارته فلسطين، الفصل 48 في كتاب "الأبرياء...": "تعال إلى الجليل... البوادي غير الآهلة بالبشر... والهضاب الجدباء... اليباب المنفّر في كفر ناحوم... والخمول المسيطر على طبرية".[37] وفي الفصل الذي يليه، الفصل 49 في الكتاب، توجه إلى جبل طابور، أو الطور، في القسم الجنوبي للجليل الأسفل، شمالي مرج ابن عامر، وهو موقع "تجلي السيد المسيح"، وكتب: "لم نصادف بشراً على الطريق باستثناء بعض الخطيرين من البدو".[38]

وبالمقابل، توضح الخارطتان المرفقتان انتشار القرى العربية في منطقة الجليل شمالي فلسطين قبل الاستيطان الصهيوني فيها، ولكن مارك توين لم يتحدث عنها، إما تجاهلاً (تحيزاً) أو قصداً (كذباً).

---

[36] يهوشع بن آرييه وعميرام أورن، بحث في: أبشلوم شموئيلي وآخرون، **أرتسوت هجليل = أراضي الجليل** (جامعة حيفا، شركة أبحاث العلوم التطبيقية، إصدار وزارة الدفاع، 1983)، ج 1، ص 347. (باللغة العبرية)

[37] Mark Twain, *THE INNOCENTS ABROAD, or The New Pilgrims' Progress*, CHAPTER XLVIII, p. 503.

[38] Ibid., CHAPTER XLIX, p. 514.

كتل التجمعات العربية الكبرى في منطقة الجليل شمالي فلسطين حسب مصدر عبري[39]

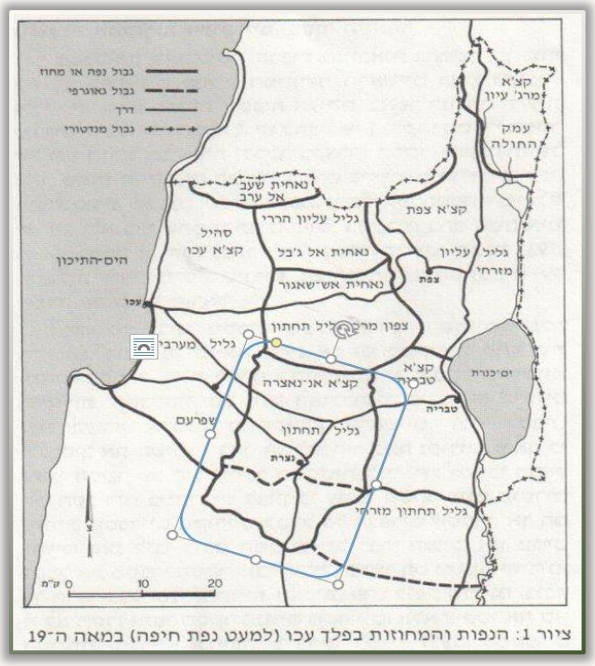

ציור 1: הנפות והמחוזות בפלך עכו (למעט נפת חיפה) במאה ה-19

قرى سنجق عكا، بدون ناحية حيفا، في القرن التاسع عشر حسب مصدر عبري [40]

348 ציור 10: מדל יישובי סנג'ק עכו (למעט קצ'א חיפה) במאה ה'19

[39] يهوشع بن آرييه وعميرام أورن، "تجمعات الجليل عشية مشروع الاستيطان الصهيوني"، في: أبشلوم شموئيلي وآخرون، **أرتسوت هجليل = أراضي الجليل**، ص 316. (باللغة العبرية)

יהושע בן אריה ועמירם אורן, יישובי הגליל ערב מפעל ההתיישבות הציוני, בתוך: ארצות הגליל, כרך א', אוניברסיטת חיפה, 1983

[40] المرجع نفسه، الخارطة، ص 348.

وحسب الفصل 55، الذي تناول فيه مساره في رحلته باتجاه أريحا ونهر الأردن، كتب توين: "في منطقة وادي الأردن جدب وعزلة وحرارة شديدة، لا أثر فيها لكائن، عدا حيوان السمندل (حيوان برمائي يشبه السحالي)، بعثت فينا إحساساً بانقباض ووحشة ونفور".[41]

وضمن تحقيق نشرته "المكتبة الوطنية الإسرائيلية The National Library of Israel"، عن اليوم الأول من رحلة توين، نقلت عنه أنه "سئم من بدائية التجمعات والطرق التي كان يصادفها"، وقوله في أثناء النظر إلى نهر دان: "على الرغم مما هو مكتوب لدى المرشدين السياحيين السوريين، فإن جمال المكان المذهل لا يصدم ويقوض عقل الشخص المتوازن في روحه". وهذا بيان يعكس موقفه العام من المناطق التي واجهها في رحلته.[42]

وعموماً، تلقفت الصهيونية السياسية، منذ تأسيسها بعد ثلاثين عاماً من رحلة توين ما كتبه، كشاهد على أن "هذه الأرض بلا شعب"، وذلك قبل نحو 15 عاماً من موجة الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين. ورأى الباحثون الصهاينة أنه في ضوء رحلة توين "ثمة أهمية كبيرة لمسألة من كانوا سكان البلد في ذلك الوقت وكم عددهم". ولتأكيد ذلك، يوردون كمّاً كبيراً من الأبحاث التي تخفض عدد سكان البلاد؛ "مثل: ثاني رؤساء إسرائيل يتسحاق بن تسفي [Yitzhak Ben-Zvi] ... – الباحث الاسكتلندي جاستن مكارثي [Justin McCarthy] – الباحثة جوان بيترز [Joanne Péters] – البروفيسور موشيه ماعوز [Moshe Maoz]... وسواهم".[43]

كما اهتمت الأوساط الصهيونية بأعمال "صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund" البريطاني، الذي أنشأ ضمن مهماته خريطة بمقياس 1 إلى 63 ألف وهي خريطة وصفت بأنها فريدة من نوعها، أكبر خريطة في عصرها. وقد عثر عليها لاحقاً جامع خرائط قديمة من رامات

---

[41] Mark Twain, *THE INNOCENTS ABROAD, or The New Pilgrims' Progress*, CHAPTER LV, p. 586.

[42] تحقيق: "الشمس كانت ستتخطى أرض إسرائيل لو كانت لديها القدرة على الاختيار"، المكتبة الوطنية الاسرائيلية. (باللغة العبرية)

[43] زئيف جاليلي، الخريطة الكبيرة للأرض الخالية، موقع زئيف جاليلي، 2004/10/15. (باللغة العبرية)

جان (شرق يافا)، تثبت أنه في عشية موجة الهجرة الأولى كانت الأرض فقيرة وخالية "بلد بلا شعب"،[44] على حدِّ زعم الخبر.

"الخُواء الحضاري":

كانت سردية مارك توين عن رحلته إلى فلسطين مُتخَمة بالتعبيرات والمشاهد التي تقدّم البلاد بأنها متخلفة، والتي تطلق على مواطنيها العرب صفات مشينة، سواء من حيث الشكل أم الطباع والسلوك، لدرجة أنه يندر عند توين إطلاق حكم إيجابي بشأن فلسطين، التي نظر إليها كمنطقة فارغة أو خاوية حضارياً، وذلك خلافاً للرسوم والصور التي جمعها الرحالة والزوار الذين سبقوه أو عاصروه، وأبرزهم؛ الرسام الاسكتلندي ديفيد روبرتس David Roberts 1796–1865، خلال رحلته إلى الشرق التي بدأت سنة 1838 وشملت مصر وفلسطين وسورية، وجوستاف باورنفيند Gustav Bauernfind الألماني 1848–1904، خلال زيارة لبيروت ويافا والقدس،[45] والإنجليزية ماري إليزا روجرز Mary Eliza Rogers، في كتابها "الحياة في بيوت فلسطين Domestic Life in Palestine"، إبان وجودها في فلسطين مع شقيقها الديبلوماسي 1855–1859.[46]

وبين الكمِّ الكبير من التعبيرات والمشاهد التي أوردها توين في كتابه "الأبرياء في الخارج"، عن رحلته في فلسطين، والتي ضمت 8 أمريكيين وتابعيْن اثنين من الخدم العرب ومترجماً، يمكن التوقف عند المضامين التالية:

- **الجزء الأول من القسم الخاص بزيارته فلسطين، الفصل 46 في كتاب "الأبرياء..."**: تضمن وصفاً لمنطقة الجليل في الشمال الفلسطيني، ذكر فيه "أن عمليات استصلاح الأراضي مشهد نادر. لم تخل الأرض من مشهد مقزز، فعلى جانب من السهل يجري أحد الأنهار وقد غصّت ضفافه بقطعان غفيرة من الشياه السورية المنفّرة، ولم أر في المكان ما تلتهمه غير الحصباء". وعن الرعاة قال: "أظن أنه لو

---

[44] المرجع نفسه.

[45] عبد الحميد أبو النصر، القدس وفلسطين في لوحات المستشرقين بين العاطفة الحقيقية والمهمة الإمبريالية، صحيفة **القدس العربي**، 2011/11/6، انظر: http://www.alquds.co.uk

[46] مجد أبو ريا، كيف رأى المستشرقون فلسطين؟، موقع فلسطين Ultra، 2018/9/13، انظر: https://ultrapal.ultrasawt.com

سنحت الفرصة لهؤلاء الشباب لبيع صغار إخوتهم فلا شك أنهم سيغتنمونها. ولهؤلاء ما كان لأسلافهم نفسه من سلوك وعادات وتقاليد وعمل ومبادئ. والصورة العامة هي رجل يركب حماراً ويحمل الطفل وتسير المرأة خلفهما". وعن قرية تسمى "ملالة" روى: "ما يحيط بنا من يباب خلا من أثرٍ لظل، وكنا على شفير الموت احتراقاً. الأرض السافعة المكشوفة القاحلة. يا لعظم خطورة أبناء الصحراء البدو (كذا!). واحسرتاه على الندى الغائب واختفاء الأزهار والطيور والأشجار. هناك سهل وبحيرة دون في وخلفهما بعض جبال وعرة. خيام منطرحة على الأرض. وعرب يتناحرون فيما بينهم كالقطط والكلاب".[47]

- **الفصل 47**: يبدأ بالحديث عن الانتقال إلى بلدة مهجورة كانت نهباً للأعشاب البرية. وتتوالى الصور: قطعة مترامية من الأرض تلبس ثوب الحداد والصمت... ألحان يرتجلها عرب لم يبق في مزاميرهم أثر من الترانيم الحلوة التي سمعها أسلافهم الرعاة في سهول بيت لحم حين كانت الملائكة تترنم بعبارة "على الأرض السلام وفي الناس المسرة"... كان جزء من الأرض التي أتيناها لا يشبه الأرض في شيء، بل هي تحفل بالصخور... أرسلت السحالي الرمادية سليلة القبور والعزلة وميضاً بين الفينة والأخرى لدى خروجها ودخولها بين الشقوق الصخرية. اكتست السحالي بلون الرماد إشارة إلى آمال تبددت... حل الجمال ثم أدركه الذبول... أعقب الحزن المسرة... نشأ الضياع والصمت في الكثبان (كذا!!) بعد حياة حافلة بالأبهة.[48]

- **الفصل 48**: يبدأ بالحديث عن بلدة المجدل، غرب بحيرة طبرية. ليست المجدل بالبلدة الجميلة، هي سورية في كل شيء، والأحرى القول إنها بلدة تنضح بالقبح والجهل والانحطاط والقلق والوضاعة... يفوح منها عفن القمامة المقزز... يتراوح ارتفاع البيوت فيها بين 5–7 أقدام، أقيمت كلها على نسق عشوائي يبعث في النفس النفور... لم يظهر أثر لبشر في أثناء دخولنا المجدل اللهم إلا وقع الجياد الذي حرّك الكسالى من أهل البلدة فهرع الجميع، كهولاً ورجالاً ونساء وصبية وبنات، وعمي وحبالى ومعوقين، وكان الكل شعثاً غبراً في أسمال رثة موحلة تكاد تستر أبدانهم بالإضافة إلى متسولين... وكنا مقرّحي الأعين من أولاد

[47] Mark Twain, *THE INNOCENTS ABROAD, or The New Pilgrims' Progress*, CHAPTER XLVI, p. 478.
[48] Ibid., CHAPTER XLVII, p. 488.

وبنات سمر بدينات ذوات وشم منفر مطبوع على الذقون والشفاه... ولدى وصوله إلى طبرية روى: كان أهلها من العرب واليهود والزنوج قبيحي الخلقة.. آفة طبرية هي القذارة والفاقة... فردوس أرضي في الجليل كان في السابق عالماً تسوده البساطة والعفوية والجمال، أما الآن فيهيمن عليه البؤس والوحشة... وعن البلاد ككل كتب: خلت فلسطين تماماً من الأخشاب، حتى لا يوجد منها ما يوقد كحطب!![49]

- **الفصل 49**: لا يوجد سمك في بحيرة طبرية!!، وقد رأينا اثنين من الرعاع يدليان بشباكهما في الماء لكنهما لم يلتقطا شيئاً... المنطقة من الجليل حتى مسقط رأس المسيح (في بيت لحم) مطوقة بأشراس البدو، ولا يسرهم في هذه الحياة سوى ذبح وطعن وتشويه وقتل أشخاص مسيحيين دون جريرة!!... الحارس العربي مسلح ببندقية قديمة ران زندها الصدأ... لقد وصلنا إلى حال أن تُفرض علينا حماية من زبالة الصحراء... كان الحارس يعمل وكيلاً لشيخ طبرية، ويعدّ عمله أحد مصادر الدخل الحكومي، والشيخ هو الذي يفرض الحراس على الرحالة ويتقاضى منهم مقابلاً لذلك... عند تسلقنا ربوة عالية بلغ ارتفاعها مئتي قدم عن البحيرة، بحيرة طبرية، ترامت أمامنا بانوراما لأرض ربما تكون أسوأ ما يمكن أن تظهر به أرض نفوراً وكآبة... بين لوبية وحطين هناك الصبار "رمز الأرض اليباب" بشوكه الأبري القاسي... ولا أثر في جبل طابور لقطعة من الصليب الحقيقي أو لعظمة باقية لقديس جليل كي يتصديا لعقول الكسالى ويوجهاهم إلى مسارات أجدى.[50]
- **الفصل 50**: تهكم على الحارس العربي الغريب الذي رافقهم من طبرية ويجمع البقشيش لقاء خدماته... كان الترجمان قد سدد لسيد الحارس ما طلبه من مال، لكن ذلك لم يفد بشيء لأنك هنا إن استخدمت من يعطس لك فإنه يختار شخصاً يعينه على العطس وعليك أن تسدد للاثنين.[51]
- **الفصل 51**: ليست بنات الناصرة بالجميلات... لا ينتعلن أحذية ولا جوارب... يفتقرن للملاحة... ويسخر من "جرايمز Grimes" مؤلف كتاب "حياة البدو في فلسطين Nomadic Life in Palestine" الذي تحدث عن جمال بنات الناصرة... وعن قرية أندور: انسربوا من جحورهم الطينية ومن أكواخ على صورة علب الملبوسات ومن كهوف منقورة في الجبل تحت رفوف صخرية... تتميز أندور بما يغشاها من

[49] Ibid., CHAPTER XLVIII, p. 503.
[50] Ibid., CHAPTER XLIX, p. 514.
[51] Ibid., CHAPTER L, p. 525.

قذارة وهمجية وانحراف خلقي وهي أحط من أي مستوطنة هندية... وبالغ توين في طلب أهلها البقشيش... وزعم أن أهلها منعوهم من الوصول إلى النبع، وأنهم تقشعر أبدانهم ويعتريهم الهلع من شفاه مسيحية تُنَجّس عين ماء... في مرج ابن عامر (الذي يسمى عيمك يزرعيل)، يتحدث عن ستة من البدو على جياد هرمة متهالكة يتصوفون بطريقة هي أقرب إلى مسلك المجانين فاقدي الأهلية.[52]

- **الفصل 52**: بعد خروج توين مع جماعته من جب يعقوب، لم يقبلوا النوم في قرية عربية وفضلوا المبيت في الخيام، لأن القرية العربية—بادعائه—امتلأت بالهوام وقذارة طوابقها وحاجتها إلى المنظفات... حجرة النوم الوحيدة التي يضمها البيت تسكنها عائلة مع الماعز وفناؤها يقيم به حماران... لم نشعر بما يقضّ مضاجعنا خارج الخيام، اللهم إلا جماعة من الشُعث الغُبر من سكان القرية الفضوليين من مختلفي الأجناس والأعمار... ومن بيت إيل والقحط الذي يميزها باتجاه أورشليم، يندر العثور على شجرة أو شجيرة في كل الأنحاء... كانت المنطقة تخلو من شجر الزيتون والصبار صديق التربة القاحلة الدائم... ولا يرقى منظر طبيعي في إصابة عين الناظر بالكلل يفوق ما يحيط بالدروب الموصلة إلى أورشليم.[53]
- **الفصل 53**: عن حالة القدس مزرية وصعوبة التجول فيها... وانتشار مظاهر البؤس والفاقة والتشرد والتسول وكل ما يشير إلى وجود للحكم الإسلامي... يلاحقك في كل مكان المجذومون والمعتوهون والمكفوفون والمشوهون، وهم لا يعرفون سوى كلمة واحدة من لغة واحدة هي "بقشيش"... أورشليم تثير الأسى والشجن والوحشة... لم تعد لدي الرغبة في الحياة في أورشليم.[54]
- **الفصل 55**: في الرحلة باتجاه أريحا ونهر الأردن، لم يكن الوافدون سوى مزيد من العرب الحفاة الأشبه بالجيف... يسلكون مسلك المجاذيب... كيف وصل العار إلى الحد الذي جعل مسيحيين مسلحين

[52] Ibid., CHAPTER LI, p. 537.
[53] Ibid., CHAPTER LII, p. 551.
[54] Ibid., CHAPTER LIII, p.558.

يُجبَرون على السفر في حماية حارس حشرة كهذا يكون لنا حامياً من الأوغاد المتسللين في البوادي بهدف السلب، أولئك المطارِدِين سفاكي الدماء... عند نهر الأردن تفاح مُرّ الطعم!!... لا يعمر المناطق المحيطة بالبحر الميت كائن أو يظهر حولها ما يسر الناظر إليها، بل هناك قفار موحشة تبعث في النفس الكآبة ويرين عليها صمت مقيت واكفهرار وإحباط يدفع إلى إحضار الجنازات والموت في الذاكرة.[55]

- **الفصل 56**: خارج القدس باتجاه نهر الأردن، كنا نمر أحياناً بوهاد صغيرة، لكن الجدب والوعورة والبوار والشعور بالانقباض كانت كلها تطغى على المشهد... وجاء في خلاصة رحلة توين ضمن هذا الفصل: إنها بلاد مملة داعية إلى النفور ولا يوجد سبب كاف لوصفها بالنقيض... يهيمن على كل الأراضي مشهد كئيب... التلال جدباء باهتة تفتقر إلى جمال الصورة... خضرة ضعيفة تضفي على صورتها معاني الأسى والكآبة... لا يوجد قطاع من الأرض يحمل قدراً من فتنة، فهي أرض يباب تثير الأسى وتوجع القلب... المناطق المحيطة بنهر الأردن ونابلس والجليل وسهل يزرعيل وأيالون (شرق يافا) تقع على مساحات شاسعة من يباب وقفر لا نهاية لهما حتى لو أتاها الربيع... تقبع فلسطين وسط الخرائب ووبر الإبل... تخيم عليها رقية من لعنة تبوّر حقولها وتبدد طاقتها... وتبدو الناصرة مكاناً مهجوراً!!... في محاضة بنهر الأردن، التي دخل عن طريقها جموع الإسرائيليين القدماء الأرض الموعودة وهم يرددون أناشيد الفرح، لا يجد المرء فيها إلا مخيماً مزرياً يقيم به الحمقى من بدو الصحراء... في يريحو خرائب ينبعث منها الدخان تماماً كما تركها يشوع منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام... وترقد بيت لحم في الفاقة والبؤس... فقدت أورشليم الشهيرة التي تحمل أقدس الألقاب التاريخية مكانتها القديمة وصارت قرية معدمة... خلا بحر الجليل (بحيرة طبرية) من النشاط التجاري، وهو الذي كان مرسى لسفن من الأسطول الروماني، وصارت ضفافه قفراً يرين عليه السكون... صارت كفر ناحوم أثراً بعد عين... وأصبحت المجدل مأوى للمشردين من العرب وليس فيها غير الطيور والثعالب المفترسة... وفي آخر الفصل 56 جاء: "فلسطين هي البؤس والبشاعة، ولماذا يجب أن تكون على النقيض؟ أيمكن للعنة الرب أن تجمّل بلداً؟!... فلسطين لم تعد ملكاً لهذا العالم... إنها أرض الأحلام".[56]

[55] Ibid., CHAPTER LV, p. 586.
[56] Ibid., CHAPTER LVI, p. 604.

كانت هذه الصفات ومثيلاتها من كتاب توين محط اهتمام صهيوني كبير، وعجّت المواد المنشورة عن فلسطين في هذا الخصوص باقتباسات وتعليقات منه يراد لها أن تكون ذرائع واعتذاريات خاصة بالمشروع الصهيوني.

وحسب قراءة للباحث الإسرائيلي زئيف فولك Ze'ev Falk؛ كان توين خلال وصفه دول أوروبا يراعيها ويكيل لها كلمات المديح والتقدير، ولكنه عندما جاء إلى آسيا بشكل عام وإلى فلسطين بشكل خاص، أصبح صحفياً متحيزاً، ولا يرى سوى السيئ والقبيح. واختار فولك مما كتبه توين:

> يبدو لي أنه من بين جميع البلاد ذات المناظر الطبيعية الكئيبة، تحمل فلسطين التاج.. التلال صلعاء، باهتة اللون، وشكلها بعيد عن أن يأسر العين.. الوديان عبارة عن صحاري قبيحة، وفقط هوامشها مزينة بنباتات متناثرة، تعبّر عن الحزن واليأس.. كل مشهد طبيعي خشن وصارم، وكل شخصية حادة.. المنظر من بعيد ليس مثيراً.. هذه أرض مملة، بائسة، مفجعة للقلب.. لم يكن هناك مكان مظلل للراحة حتى بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من معسكرنا، وهذا على الرغم من حقيقة أن تياراً يجري بجانبنا.. وعلى الرغم من أننا رأينا الماء، لكن في كل مساحة البرية حولنا لم يكن هناك حتى قليل من الظل، وعانينا كثيراً من حرارة الشمس الحارقة... كانت الساعة السابعة صباحاً، وبما أننا كنا في وسط الطبيعة، وكان على العشب أن يتلألأ بمجموعة من الزهور، وتغرد الطيور على الأشجار، لكن للأسف لا يوجد ندى ولا أزهار ولا طيور ولا أشجار هنا.. لا يوجد سوى واد وبحيرة بلا ظل، وما خلفهما جبال مكشوفة.. الفلاحون العرب الذين قابلناهم حشد ينتظرون منا فتات الخبز... بدا الأطفال والنساء متعبين ومكتئبين وجائعين.. كانوا مصابين بالقمل وتجمدت الأوساخ عليهم.. البدو وعاداتهم وتقاليدهم وملابسهم ومهنهم وأخلاقهم السائبة.. هاجموا معسكرنا[57]

وخلافاً لرفاقه في الرحلة، لم يميز توين أبداً بين الإسرائيليين التوراتيين والعرب المعاصرين الذين بدوا له متطابقين، فهيئات الرعاة البدو بقطعانهم وأرديتهم الطويلة تغلب على قلوب الآلاف من الحجاج المسيحيين الذين وجدوا فيهم شخصية أبطال العهد القديم. ووصفهم توين: "كانوا بدواً طويلي القامة مفتولي العضلات

---

[57] زئيف فولك، زيارة مارك توين في الأرض الخالية، موقع أسماء، 2010/12/25، انظر:

https://www.zomet.org.il/?CategoryID=160&ArticleID=5570 (باللغة العبرية)

זאב ולק, ביקור מארק טווין בָּאָרץ השוממה, אתר שמות

وذوي بشرة داكنة جداً ولحى فحمية.. كانت لديهم شفاه ثابتة وعيون جريئة.. عاداتهم، تقاليدهم، ألبستهم، مهنهم، ومبادئهم الأخلاقية المشكوك فيها لا تختلف عن تلك التي كان بها أجدادهم".[58]

والتفت توين إلى أصحاب الحمير والخيول، وكتب غاضباً: "ليس لديهم حب لخيولهم ولا شفقة عليهم ولا يعرفون كيف يعالجونها أو يعتنون بها.. هؤلاء القوادون لا يفكرون أبداً في غسل خيولهم، ولا يزيلون السجادة التي تحت السرج، لا في النهار ولا في الليل، فهي تمتص الشعر والأوساخ وتتشرب جميعها بالعرق، وتسبب جروحاً لا محالة إلى الحصان".[59]

ومما كتبه توين عن طبرية، يُستشف أن سكانها كانوا في نظره تافهين وضيقي الأفق، والأسعار الباهظة التي قدموها للحجاج تثبت ذلك، فعلى شواطئ جينوسار، بينما كان يتخيل أن يسوع (عيسى عليه السلام) يقدّم تعاليمه للصيادين في المنطقة، ويوسيفوس فلافيوس Josephus Flavius יוספוס פלביוס يقود أسطوله الحربي، حاول الحجاج ركوب قارب لأحد السكان المحليين، وقبل أن يتمكنوا من التفاوض معه على السعر الباهظ الذي يطلبه، أبحر بعيداً وترك الحجاج المذهولين يلومون بعضهم البعض.[60]

ولدى وصف مارك توين لقرية سولم العربية، التي قال إنها في موقع شونم שונם التوراتية، بالقرب من العفولة، جنوب الناصرة، ذكر أنها مكان "تلتصق فيه فضلات الجِمال بجدران الأكواخ". لكنه خرج عن أسلوبه، لسبب ما مجهول، وكتب: "وجدنا بستان ليمون هنا؛ بارد، مظلل، وفير الفاكهة.. سأتذكر دائماً باعتزاز شونم كمكان قدّم لنا هذا المأوى المظلل بأوراق الشجر بعد رحلة طويلة وساخنة ومملة.. استرحنا وتحدثنا ودخنّا لمدة ساعة ثم ركبنا خيولنا وواصلنا طريقنا". يقول الباحث الإسرائيلي موشيه جلعاد Moshe

---

[58] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

[59] موشيه شاي وإيلان شاين، مارك توين: هنا وهناك في الأرض المقدسة – جولة أخرى، موقع جولة أخرى، انظر: https://www.masa.co.il (باللغة العبرية)

משה שי ואילן שיין מארק טווין: פה ושם בארץ הקודש- מסע אחר، אתר מסע אחר

[60] تحقيق: "الشمس كانت ستتخطى أرض إسرائيل لو كانت لديها القدرة على الاختيار"، المكتبة الوطنية الاسرائيلية. (باللغة العبرية)

Gilad: "هذا الوصف غير مألوف في كتاب توين.. عليك أن تفرك عينيك لتصدق أن توين نفسه يخرج عن طريقه ويمدح مكاناً جميلاً، بينما تغلب على كتابه شكاوى وادعاءات وافتراءات مروعة للبلاد والمناظر الطبيعية والمدن والقرى والسكان الذين يعيشون فيها".[61]

طريقة خاصة في تناول توين الشؤون المسيحية:

تطرق توين للشؤون المسيحية، في مواقع متعددة من كتابه "الأبرياء..."، بطريقة إخبارية أو بتعليقات، واتكأ في ذلك على ارتباطها، حسب رأيه، بالكتاب المقدس، بعهديْه القديم والجديد. ففي الفصل الثاني من القسم الخاص بزيارته فلسطين، الفصل 47 في كتاب توين، يتحدث مثلاً عن مدينة كفار (كفر) ناحوم القديمة، على الساحل الشمالي لبحيرة طبرية، الذي روى العهد الجديد أن المسيح ألقى فيها خطبته المشهورة "موعظة الجبل"، وكانت تضمّ كنيسة للروم الأرثوذوكس وديراً للفرنسيسكان، وصوّرها توين "كأثر بلا معالم، وما حملت من سمات المدن شيئاً، وخلت مما يوحي بأنها كانت مدينة يوماً ما، بل هي الآن تخلو من الناس"... كما تحدث عن الناصرة ومعجزات السيد المسيح فيها، ولم يبدِ إعجابه بأي من منشآتها.[62]

وفي الفصل التالي، تناول توين التباين في النظرة للجليل وفلسطين؛ بين الكنيسة المشيخية البروتستانتية والمعمدانيين والكاثوليك.[63] وحول انطباعاته، كتب توين:

> عندما أرشد السياح المسيحيين في الأماكن المسيحية المقدسة، أفكر أحياناً فيما يخطر ببالي عند رؤية الأماكن التي سمعوا عنها منذ شبابهم. من ناحية أخرى – حتى أولئك الذين لا يزورون الكنيسة على الإطلاق يشعرون بسعادة غامرة من الأماكن التي سار فيها مخلّصهم أو تصرف أو مات، لكن

---

[61] موشيه جلعاد، لماذا كره مارك توين ما رآه في إسرائيل وعلاقته بنتنياهو، صحيفة **هآرتس**، 2017/3/13، انظر:
https://www.haaretz.co.il/gallery/literature/.premium-1.3922216 (باللغة العبرية)
משה גלעד, למה מארק טוויין שנא את מה שראה בישראל ואיך זה קשור לנתניהו

[62] Mark Twain, *THE INNOCENTS ABROAD, or The New Pilgrims' Progress*, CHAPTER XLVII, p. 488.

[63] Ibid., CHAPTER XLVIII, p. 503.

من ناحية أخرى، أتساءل عما إذا كانوا يشعرون أيضاً بعدم الارتياح تجاه تسويق بعض الأماكن المقدسة والسخرية منها.[64]

وكانت ملاحظات توين الساخرة تتعلق بشكل أساسي بالمعتقدات الدينية التي واجهها خلال رحلته، والتي بدت سخيفة بالنسبة له كرجل غير ملتزم دينياً، فشكّك في—ما يسمى عن اليهود والمسيحيين— "الحقائق التاريخية" بشأن الأرض المقدسة، ورفض أن يأخذ الأمور كأمر مسلّم به. وكانت أوصاف توين للكنائس التي رآها على طول الطريق، وخصوصاً كنيسة القيامة، بأسلوبه البسيط والمتحدي تقريباً، مغايرة للأوصاف الدينية التي تميزها عادة.[65]

ومع هذا يمكن ملاحظة أن موقف توين كان متناقضاً تجاه الدين المسيحي، فعلى الرغم من أنه كان متشككاً في تحديد المواقع المقدسة للمسيحية، إلا أنه لم يكن كافراً، ولكنه مسيحي بروتستانتي من العالم الجديد يؤمن بيسوع. ويمكن رؤية شكوكه وإيمانه مجتمعين من وصف زيارته لكنيسة القيامة، وهي أهم موقع في القدس للمسيحيين من جميع الطوائف:

> عندما تدخل كنيسة القيامة، تريد أن ترى القبر نفسه أولاً، وهو أول ما تراه تقريباً، إنه المكان الذي صُلب فيه المخلّص وقام من بين الأموات... تقف ثقيلاً ومتأملاً في كوخ المخلص الصغير— لا يمكنك أن تكون في حالة مزاجية أخرى في مثل هذا المكان—ولكن ليس لديك أدنى إيمان بأن ربنا فعل ذلك على الإطلاق، ومن ثَمّ إن هذا الفكر المشكوك فيه يحجب اهتمامك به.

وفي الوقت ذاته، يحرص توين على التأكيد على أن شكوكه تتعلق بالدفن، وليس حول حقيقة أن المسيح، باعتقاده، قد صلب بالفعل في هذا المكان: "مكان الصلب يؤثر عليك بشكل مختلف. أنت تؤمن بصدق أنك تراقب المكان الذي ضحى فيه المخلص بحياته".[66]

---

[64] تعريف بكتاب مارك توين، **مباهج في الأرض المقدسة**، ترجمة عوديد بيلد، إصدار كنيرت زمورا بيتان، دفير، 2009، انظر: http://www.yoaview.com/Yoaview/SITE/?action=showobject&sn=2_648 (باللغة العبرية)
מארק טווין, תענוגות בארץ הקודש, בתרגום עודד פלד, כנרת זמורה ביתן, דביר 2009

[65] وري كتسير، اكتشاف مخطوطة من كتاب غير معروف لمارك توين، مدونة أوري كتسير، 2010/3/30. (باللغة العبرية)

[66] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

كما كان توين يركز على الجوانب الدينية والطقوس للمسيحيين في البلاد وللحجاج الزائرين، ليس أقل من ارتباطه بالمناظر الطبيعية والناس. ومع أن توين كان بروتستانتياً، لكن هذا لم يمنعه من السخرية من "الصناعة" الدينية.[67] وقد اتضح أن صناعة السياحة الدينية المسيحية أثارت ميول توين الطبيعية للسخرية والهجاء. فمنذ لحظة وصول المسافرين إلى الأرض المقدسة، وفي تنافر مع بقية رفاقه، سارع توين إلى رفض مظاهر الورع الدينية التي أظهرها المشاركون الآخرون في الرحلة، ووفقاً لتقاريره، انتهز رفاقه كل فرصة للبكاء والصلاة بشكل هستيري، ولكنهم لم ينسوا السرقة قدر استطاعتهم.[68]

ولوحظ أن وصف توين للأرض المقدسة اتسم بتعارض سافر مع صورتها في الكتاب المقدس وآداب الحج، التي عرفتها الولايات المتحدة. فقد كان المبشرون البروتستانت والمغامرون والصوفيون، هم الأمريكيون الوحيدون الذين جالوا في الأراضي المقدسة في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتأثروا للغاية عندما شاهدوها لأول مرة، لدرجة أنهم لم يلاحظوا الحالة الكئيبة والمقفرة للبلاد. وعلى هذه الخلفية يمكن أن نفهم أن الهدف الرئيسي لمارك توين في تعبيراته الكئيبة وتشهيره بالمناظر الطبيعية هو قبل كل شيء هجوم فكاهي على وصف تلك المناظر الطبيعية في كتب الرحلات التي تمّ تزويد السياح الأمريكيين بها.[69] وباعتقاد توين، نظر السائحون الأمريكيون إلى الأرض المقدسة من زاوية المستهلك، لذلك اشتاقوا إلى جمع أكبر عدد ممكن من الهدايا التذكارية في المنزل، وعادوا من رحلتهم مع زجاجات مياه من الأردن والبحر الميت وحجارة أو تذكارات أخرى من الأماكن المقدسة. وقال توين عن هذا السلوك بنبرته المميزة: "الحجاج، كما هي عادتهم في الحرم، نهبوا قطعاً تذكارية، ثم انطلقنا".[70]

يُثار هنا احتمال مفاده، أن موقف توين المتضارب تجاه المسيحية، أسهم بشكل غير مباشر باكتساب كتابه "الأبرياء..." شعبية واسعة لدى المسيحيين غير المتدينين. ففي الفترة التي زار فيها توين فلسطين، كانت هناك أمور علمانية إلى حدٍّ ما كتبها لصدمة البرجوازية البروتستانتية المسيحية. ولكن من المستحسن

---

[67] تعريف بكتاب مارك توين، **رحلة مباهج في الأرض المقدسة**، تبوز، 2013/4/18. (باللغة العبرية)

[68] تحقيق: "الشمس كانت ستتخطى أرض إسرائيل لو كانت لديها القدرة على الاختيار"، المكتبة الوطنية الاسرائيلية. (باللغة العبرية)

[69] مايا دواني، حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل، **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31. (باللغة العبرية)

[70] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

رؤية كتاباته كمحاولة خفية لإحضار الحقيقة إلى العين الدينية. وعموماً، كان الدرس الذي يتكرر مراراً في كتاب توين هو أن الأرض المقدسة ليست كما وعد بها الكهنة والكتب المقدسة، وكذلك كل الفنون التي تمّ إنشاؤها، وجاء هذا الكتاب فشوّه تصورات هؤلاء.[71]

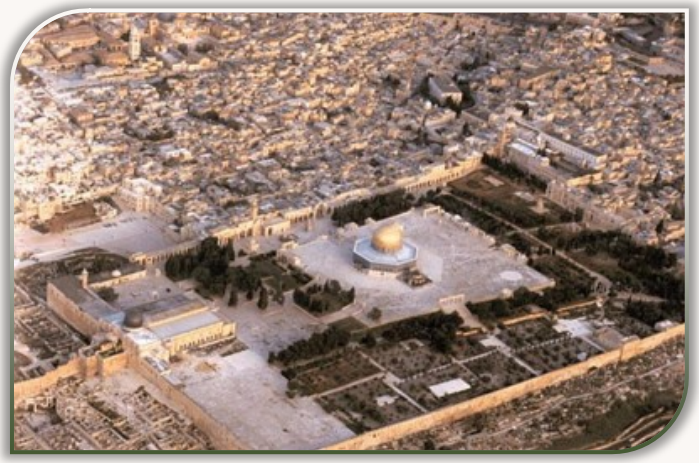

وبذلك أثار توين الكثير من الغضب في الأوساط الدينية المسيحية في تلك الأيام، لأن الأرض المقدسة احتلت مكانة بارزة في الوعي الديني للعديد من الجماعات البروتستانتية في الولايات المتحدة، وكان يُنظر إلى الحجاج على أنهم يؤدون عملاً دينياً مهماً، وأفاد جميع المسافرين والحجاج ومؤلفي كتب السفر عن مدى تأثير المشهد التوراتي عليهم وتغيير حياتهم. حتى أن صور الرعاة البدو، مع قطعانهم وأثوابهم (الكتابية)، استمالت قلوب آلاف الحجاج المسيحيين الذين حجوا إلى الأرض المقدسة خلال فترة مارك توين، أو قبل وبعدها، ومجّدوا مناظر البلاد وأشكالها في أدب الحج. وقام الحاج التقليدي بجولة هنا بهدف البحث عن شخصيات أبطال العهد القديم. فيما كان توين مخالفاً لذلك.[72]

توصيف للقدس مثير:

رسم مارك توين مشهداً مثيراً للقدس، أو كما يسمونها يروشلايم ירושלים، فمع أن اسم المدينة كان شائعاً على ألسنة كل من قرأ الكتاب المقدس، وكانت الصفات التي ارتبطت بها هي أسماء الجلالة والبهجة والملك والنبوة والقداسة والنقاء، إلا أن توين اتخذ منحى مغايراً في توصيف القدس، ومما رواه حين وصوله إليها: "في نهاية المطاف، في منتصف النهار، بدأت تظهر في الأفق قطع قديمة من الجدران والأقواس المتداعية. وصعدنا تلاً آخر، ورفع كل حاج وكل خاطئ بيننا قبعته إلى الأعلى: القدس!". ولكن بعد اللحظة الأولى

[71] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، أصدقاء جورج، 201/11/1. (باللغة العبرية)

[72] موشيه شاي وإيلان شاين، مارك توين: هنا وهناك في الأرض المقدسة، جولة أخرى. (باللغة العبرية)

من الإثارة، ما أدهش توين وأصدقاؤه بشكل خاص هو حجم المدينة؛ "صغيرة جداً!... يبلغ عدد سكان القدس 14,000 نسمة... ويمكن للشخص الذي يسافر جيداً أن يتجول حول أسوار القدس في غضون ساعة... لا أعرف أي طريقة أخرى لأجعل الناس يدركون مدى صغر حجمها... الشوارع ضيقة ومعبدة بشكل سيء، والقطط تقفز بسهولة من السقف على جانب واحد من الشارع إلى السقف على الجانب الآخر". ووصف توين حائط المبكى بأنه "جزء من الجدار القديم يسمى "مكان بكاء اليهود"، حيث يجتمع العبرانيون كل يوم جمعة لتقبيل الحجارة المقدسة والحداد على سقوط صهيون العظيم". وبعد رحلة قصيرة، توقفت عند كنائس عدة، قرر السائحون أن الوقت قد حان للمضي قدماً، "لا يوجد شيء آخر تراه في القدس". ويقول الموقع الذي تحدث عن زيارة توين للقدس: "في عام 1867، لم يجد اليهودي الذي زار يروشلايم أو عاش فيها صعوبة في الشعور بالدمار، المدينة التي غادرها مجد العصور القديمة، المدينة التي كان معظم سكانها فقراء وجهلة من الوثنيين، المدينة التي يأتي السياح لزيارتها، وبصرف النظر عن عدد من المواقع المسيحية وقبة الصخرة، لم يجدوا شيئاً جديراً بالملاحظة".[73]

وأوضح توين أن الحجاج لم ينفجروا في البكاء عند وصولهم إلى القدس، وبرأيه: "لم تكن هناك حاجة للدموع، لأنها لا تناسب الحالة، فالأفكار التي تثيرها القدس مليئة بالشعر والإلهام والعظمة، والأهم من ذلك كله الاحترام، وهذه الأفكار لا تجد التعبير العاطفي المناسب". وفي لحظة أخرى، كتب توين: "المكان الأول الذي تذهب إليه بالطبع هو القبر المقدس... القبر مغلق... هناك نوع من المعبد الصغير المبني من الحجارة

[73] كيف كانت تبدو القدس قبل 150 عاماً؟ رواية المؤلف الأمريكي مارك توين، موقع معيان كفير، 18 تموز 5766 عبري، الموافق 2016/7/24، انظر: https://www.hidabroot.org/article/211155 (باللغة العبرية)
מעיין כפיר | איך נראתה ירושלים לפני 150 שנה? הסופר האמריקאי מארק טוויין מספר

الصفراء والبيضاء بتصميم غريب... مغطى ببلاطة رخامية متآكلة جداً... فوقه يتدلى نحو خمسين مصباحاً فضياً... وبجانبه توجد زخارف رخيصة وألعاب غبيّة تسيء إلى هذا المكان المقدس".[74]

وفي تهكّم على قصة الملك شلومو في الكتاب المقدس، كتب توين: من الأفضل رؤية المناظر الطبيعية عبر النقوش، لكنني لن أتعجب بعد الآن من صورة ملكة قادمة لزيارة الملك شلومو: "أقول لنفسي، تبدين رائعة يا سيدتي، لكن ساقيك قذرتان ورائحتك كريهة مثل رائحة الجمل".[75]

ويصف توين جزءاً من جولته في محيط القدس، بقوله:

> سافرنا في وادي بن هنوم، وقلنا إننا سننزل عن الخيول ونروي عطشنا، والبركة قناة عميقة بجدران، يتدفق من خلالها رافد من المياه الصافية التي تنبع في مكان ما أسفل القدس، ويمر بنبع العذراء أو يملأ مياهها، ويصل إلى هذه النقطة عبر نفق حجري صلب. بدت بِركة السباحة الشهيرة كما كانت في أيام شلومو، ونزلت الفتيات الشرقيات السمراوات إليها كطريقتهن الشرقية القديمة، لترفعن منها إلى الماء على رؤوسهن، تماماً كما فعلت النساء قبل ثلاثة آلاف عام.[76]

كما كتب توين في وصف عرب القدس: "البُرص والمقعدون والعمي والمجانين يهاجمونك من جميع الجهات، واتضح أنهم يعرفون كلمة واحدة فقط بلغة واحدة بقشيش... وعلى مرأى من جماهير المقعدين والمشوهين والمرضى المتجمعين في الأماكن المقدسة وسدوا البوابات، قد يعتقد المرء أن العصور القديمة قد عادت، وأن ملاك الله سينزل في أي لحظة ويغلي الماء في بركة النعمة".[77]

ومن اللافت أن توين لم يتوقف عند روعة منشآت الحرم القدسي، وخصوصاً المسجد الأقصى وقبة الصخرة، بل تناول ذلك بطريقة إقحام الرواية اليهودية في المشهد، وكتب: "يحتل مسجد عمر الضخم (كذا) والفناء المحيط به ربع مساحة القدس، ويقفان على جبل موريا حيث يقف أمامه معبد شلومو، وهذا

---

[74] تعريف بكتاب مارك توين، **مباهج في الأرض المقدسة**، كنيرت زمورا بيتان، دفير، 2009. (باللغة العبرية)

[75] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

[76] دراسة "فترة الحكم التركي (العثماني) لفلسطين 1517–1917،" من كتاب مارك توين، **رحلة مباهج إلى الأرض المقدسة**، ترجمة أرنون بن ناحوم (القدس: آرئيل، 1999)، موقع مدى الإسرائيلي، 2010/4/3، انظر:
https://www.mada.org.il/water/jerusalem/othman (باللغة العبرية)

[77] أوري كتسير، اكتشاف مخطوطة من كتاب غير معروف لمارك توين، مدونة أوري كتسير، 2010/3/30. (باللغة العبرية)

المسجد هو أقدس مكان عند المسلمين بعد مكة".[78] ومع أن توين نظر إلى القدس من زاوية علاقتها بما ورد في الكتاب المقدس، ولكن من الجدير ذكره أن "اليهود لم يظهروا بشكل بارز في كتاب توين".[79]

وماذا عن اليهود؟

تدعي الإحصائيات اليهودية أنه في فترة رحلة توين إلى فلسطين كان في البلاد نحو 25 ألف يهودي. ولكن توين نادراً ما ذكر اليهود في كتابه،[80] وجاء ذكرهم بشكل عرَضي عابر، دون أي تفاصيل عنهم، وذلك عند زيارته لطبرية وللقدس، وخلال إشارتين إلى ما يسمى "معاداة السامية".[81] بيد أن توين كتب مقالاً منفصلاً بعنوان "بخصوص اليهود Concerning the Jews"، نُشر في "مجلة هاربر Harper's Magazine"، في 1896/9/6، أي بعد أكثر من 29 عاماً من رحلته إلى فلسطين، تناول فيه اليهود بروح إيجابية متعاطفة، وجاء فيه:

> إذا كانت الإحصائيات دقيقة، فإن اليهود يشكلون 1% فقط من الجنس البشري... فهم كنجم صغير خافت، غامض وبائس، ضاع في وهج مجرة درب التبانة... ومن المنطقي أنه بالكاد يعرف المرء عن اليهودي، ولكنه يسمع، ويسمع عنه دائماً... إنه يضيء مثل كوكب في السماء لا أقل من القوى العظمى... وتفوق أهمية اليهود التجارية كثيراً عددهم بين عموم السكان... ومساهمتهم في القائمة المشرفة من الشخصيات في الآداب، والعلوم، والفن، والموسيقى، والاقتصاد، والطب، والعلوم الإنسانية تتجاوز أي نطاق... لقد عرف اليهودي كيف يقاتل من أجل نفسه، في جميع الأجيال، حتى عندما كانت يداه مقيدتين... لقد نهض المصريون والبابليون والفرس في أيامهم، تبعهم الإغريق والرومان ثم صمتوا واختفوا؛ بينما قفزت شعوب أخرى وحملت الشعلة العظيمة، واليوم يجلسون في الظلام تحت الشمس، مثل مذنبات، حتى تلاشت آلامهم وتلاشوا تماماً؛ وقد رآهم اليهودي جميعاً،

---

[78] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، أصدقاء جورج، 201/11/1. (باللغة العبرية)

[79] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

[80] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، أصدقاء جورج، 201/11/1. (باللغة العبرية)

[81] مارك توين ورأيه باليهود מרק טוויין ודעתו על היהודים، موقع موتكه، 2016/4/29، انظر: https://www.motke.co.il/index.php?idr=402&pid=163961 (باللغة العبرية)

وانتصر عليهم جميعاً، ومع ذلك لم تظهر عليه علامات التقهقر، ولا علامات الشيخوخة، ولا الإرهاق، ولا فقدان القوة الدافعة... بل ظلت حياته أبدية، وهو الآن كما كان دائماً... كل شيء زائل ما عدا اليهودي... كل شيء يمر ويعبر وهو وحده يبقى.[82]

واهتم موقع آخر بنقل عبارات من مقال توين ذاته، جاء فيها: "عندما يحتاج اليهودي إلى التسول، ينقذه أخوته من الاضطرار إلى ذلك... المؤسسات الخيرية اليهودية مدعومة بأموال يهودية وبوفرة... لا يعلنون ذلك في شوارع المدينة، ويتم ذلك بشكل متواضع، دون إزعاج أو مضايقة لنا... إنهم يمنحوننا الراحة، ويقدمون لنا قدوة، وهم مثال نخفق في محاكاته".[83]

ثيودور هرتسل

ومن المعلومات التي نشرت عن "توين واليهود" وعلاقة الأمر بفلسطين، أنه منذ بداية الحركة الصهيونية رأى توين الإمكانات العظيمة الكامنة في الدولة اليهودية (كما في مقال "بخصوص اليهود")، لكنه توجس من الفكرة، وكتب: "ينوي الدكتور هرتسل جمع يهود من جميع أنحاء العالم في أرض إسرائيل مع حكومتهم الخاصة... في رأيي، يجب وقف هذه المزحة على الفور... من غير المرغوب فيه تماماً لسباق أذكى العقول في العالم أن يكتشف فجأة قوتها... إذا عرفنا قوة الخيول، فلن نتمكن من الاستمرار في ركوبها". وحسب أحد الباحثين اليهود، "يمكن بسهولة تحديد السبب الرئيسي لرؤية مارك توين هذه بأنه الصراع اليهودي الفلسطيني أثناء تحقيق رؤية هرتسل".[84]

---

[82] ملحق: "بخصوص اليهود"، في مارك توين، **رحلة مباهج إلى الأرض المقدسة**، مجلة **هاربر**، 1899/9/6، ص 193-207. (باللغة العبرية)

מארק טוויין، מסע תענוגות לארץ הקודש، נספח: "בנוגע ליהודים"، (תירגם: ארנון בן נחום)، ירושלים: אריאל، תשנ"ט، המאמר במלואו בעברית، 1999، עמ' 193-207؛ عن:

Mark Twain, "Concerning the Jews," Harper's Magazine, 6/9/1899.

[83] مارك توين، من مقال "بخصوص اليهود"، موقع بين قوسين **בין המרכאות**، انظر:

http://www.pitgam.net/data/%5B%D7%9E%D7%A8%D7%A7+%D7%98%D7%95%D7%95%D7%99%D7%9F%5D/1/1/0/ (باللغة العبرية)

[84] تسفي مِسيني، نهج مبتكر لحل مشكلة أرض إسرائيل، "برنامج التواصل"، أيار/ مايو 2007، انظر:

www.kirya-team.org.il/word/sifronmasini.doc (باللغة العبرية)

צבי מסיני، גישה חדשנית לפתרון בעית ארץ ישראל – תכנית ההתחברות- מאי 2007

ومما ذُكر عن توين أيضاً أن ابنته تزوجت بيهودي من فيينا، وأن توين أحب صهره كثيراً، وأنه "التقى بفرويد وهرتسل في فيينا، وأعجب بهما، وفي تلك المرحلة من حياته، كانت لديه انتقادات لليهود، ولكن أيضاً كانت له إزاءهم آراء إيجابية تماماً".[85]

مظاهر من الاحتفاء الصهيوني بمارك توين:

توسعت الأوساط الصهيونية في التعامل مع ما كتبه توين عن رحلته. وبين الفعاليات التي ظهرت في هذا الخصوص؛ تمّت ترجمة كتابه وطباعة الترجمة مرات عدة، وخصوصاً القسم المتعلق بفلسطين، تحت عنوان فرعي هو "رحلة مباهج (أو ملذات) إلى الأرض المقدسة מסע תענוגות לארץ הקודש"، وأحياناً في الأرض المقدسة בארץ הקודש، وصدرت طبعات عدة من تلك الترجمة، وسواها،[86] لوضع الكتاب في متناول الكثيرين من القراء بالعبرية. كما تُرجمت كتب توين الأخرى إلى العبرية، وأصدرت مؤسسات إعلامية وثقافية تذكارات وأفلاماً عنه.[87]

صدرت ترجمات لطبعات عدة بالعبرية لفصول من كتاب مارك توين "الأبرياء في الخارج" تحت عنوان "رحلة مباهج إلى الأرض المقدسة"

[85] موشيه جلعاد، لماذا كره مارك توين ما رآه في إسرائيل وعلاقته بنتنياهو، **هآرتس**، 2017/3/13. (باللغة العبرية)

[86] أرض الأحلام: المسافرون الأمريكيون إلى الأراضي المقدسة في القرن التاسع عشر، المكتبة الوطنية الإسرائيلية، آذار/ مارس 2013. (باللغة العبرية)

[87] عيّنات مما نشر من أفلام وسواها عن مارك توين (باللغة العبرية)، على الرابط:
https://www.youtube.com/results?search_query=%D7%9E%D7%90%D7%A8%D7%A7+%D7%98%D7%95%D7%95%D7%99%D7%9F

وأعاد كثيرون محاكاة جولته في البلاد، وجرت مقارنة ما كتبه توين عنها بالتغيرات التي طرأت عليها خلال العقود اللاحقة، في معرض إظهار "المعجزة الصهيونية". فقد قام موشيه شاي Moshe Shay משה שי وإيلان شين Ilan Shane אילן שיין، بما أسمياه "رحلة أخرى"، بعد مئة عام من رحلة مارك توين، ركزا فيها على بناء عالم جديد، حيث صارت الوديان خصبة ومليئة بالبساتين والحقول، وصارت جبال الجليل مليئة بالبلدات والغابات، وغزت الصهيونية البرية القبيحة وأزالت الكآبة. وجرى لفت الأنظار إلى النساء الجميلات اللواتي يرتدين ملابس السباحة الملونة في طبرية.[88]

وفي السياق ذاته، استغل موشيه دور Moshe Dor משה דור يوم الذكرى المئوية لوفاة مارك توين، المصادف 2010/4/2، لما أسماه "التذكير بكتاب توين الذي بني على ترحاله في أرض إسرائيل المليئة بالناس البدائيين الذين يعانون من القمل وذوي الأسمال البالية". وأوضح دور أنه لا ينوي الخوض في تقييم مشروع توين الأدبي، بل يودّ أن يذكر كتابه "الأبرياء في الخارج"، الذي رأى أن له معنى خاصاً بالنسبة لـ"إسرائيل"، والذي ترجم عوديد بيلد Oded Peled עודד פלד قسماً منه للعبرية بعنوان "رحلة مباهج في الأرض المقدسة".[89]

ووضع أبراهام ليفينسون Abraham Levinson אברהם לווינסון، مقدمة لترجمة الرحلة في الأرض المقدسة إلى اللغة العبرية، جاء فيها حول كيفية التعامل مع مناظرها الطبيعية في القرن التاسع عشر: "لا يمكنك إلا أن تتألم... أرض قاتمة مكفهرة... لكن الصهيونية قامت بغزو البرية القبيحة، وأزالت الكآبة وابتسمت". الغرض من المقدمة هو القول إنه الآن، بعد أكثر من مئة عام من رحلة توين، غيّرت البلاد وجهها بالكامل. ومن المثير للاهتمام أن عدداً قليلاً من المهتمين الإسرائيليين يميلون إلى اختيار اقتباسات كهذه لوصف لقاء الوافدين الأوائل بالمناظر الطبيعية للبلاد. ويجب أن نتذكر أن وصف توين تمّ وضعه سنة 1867، حتى قبل بدء المشروع الاستيطاني

---

[88] موشيه شاي وإيلان شاين، مارك توين: هنا وهناك في الأرض المقدسة، جولة أخرى. (باللغة العبرية)

[89] موشي دور، بلد الذباب والأمراض والفقر، **يديعوت أحرونوت**، 2010/5/20، انظر:
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3891663,00.html (باللغة العبرية)
משה דור، ארץ זבת מחלות ועוני.

الصهيوني، ومن المحتمل أن اختيار هذا الوصف الصعب يخدمهم كنوع من الإعداد، على النقيض من تكثيف كل نشاط عبراني، ويُنظر إليه على أنه تحسين المناظر الطبيعية للأرض أو "إعادة التاج إلى مجده السابق".[90]

ويتحدث موقع إسرائيلي عن بعض "الإنجازات الصهيونية"، عبر إيراد الصورة المعاكسة لما أورده مارك توين بالقول: "اليوم، عندما تكون القدس عاصمة ضخمة، يجب على المرء أن يبذل جهداً ويتذكر أنه على مدى ألفي عام كانت المدينة المهزومة مكاناً هامشياً ومهملاً، مشت فيه الثعالب، ونحن نعيش المعجزة التي بدأت بالقدرة المادية على بناء القدس، وتحويلها من مدينة قاتمة ومقفرة—كما وصفها توين—إلى عاصمة جميلة وضخمة وصاخبة".[91]

ونشر الصحفي الإسرائيلي أرئيل شنابل Ariel Schnabel אריאל שנבל سلسلة مقالات عن رحلة توين، روى فيها أنه بعد 150 عاماً منه تتبّع مسارات هذه الرحلة ليرى ما الذي تغير.[92] وحول ذلك، ورد في موقع "بنيامين أرض الأنبياء والينابيع" سنة 2017: "ما علينا إلا أن نقرأ ونستمتع بأوصاف توين اليائسة والقاتمة لبلدنا، ونتساءل عما كان سيقوله لو أنه زارها اليوم". الصحفي أرئيل شنابل، الذي اهتم برحلة توين، كتب عنها سلسلة من المقالات، صاغها بطريقة تلخص القصة بأكملها ومما جاء فيها: "في 150 عاماً، وهي فاصلة تاريخية، تمكَّن اليهود من فعل ما لا يُصدق... في كل مكان ذهبتُ إليه، أخذت أنفاسي بعيداً عن الاختلافات بين ذلك الحين واليوم. لدينا جميعاً فرصة لمتابعة مارك توين في رحلة ممتعة في بنيامين (منطقة رام الله – الباحث)، والاستمتاع بكل ما فعلته الصهيونية في أرض إسرائيل".[93]

---

[90] مايا دواني، حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل، **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31. (باللغة العبرية)

[91] مارك توين، كيف كانت تبدو القدس قبل 150 عاماً؟، معيان كفير، 2016/7/24. (باللغة العبرية)

[92] أرئيل شنابل، المسافر التشهيري: لقد راجعنا رحلة مارك توين في إسرائيل، موقع مَاكور ريشون، 2017/7/1، انظر:
https://www.makorrishon.co.il/nrg/online/55/ART2/884/319.html (باللغة العبرية)
הנוסע המשמיץ: שחזרנו את מסעו של מארק טוויין בישראל

[93] في أعقاب مارك توين: ماذا سيقول توين اليوم عن بنيامين؟، بنيامين أرض الأنبياء والينابيع، 2017.

ووصل الأمر إلى التوقف في كل مكان زاره مارك توين، فمثلاً إحياء لذكرى قيام توين بتناول الطعام في مطعم فندق دريسكو في يافا، نظمت أمسية خاصة في الفندق، تحدثت فيها الكاتبة دوريت رابينيان Dorit Rabinyan عن رحلة مارك توين إلى يافا.[94]

فندق دريسكو في يافا

ونشر الدليل والمدرب السياحي موتي إفراتي Moti Efrati מוטי אפרתי خطة لتنظيم زيارة، في أيار/ مايو 2021، إلى الأماكن التي زارها مارك توين.[95]

كيف استخدم نتنياهو مارك توين؟

بنيامين نتنياهو

وقع اختيار رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو Benjamin Netanyahu على كتاب مارك توين "الأبرياء..." ليكون سنداً سياسياً له في خدمة الدعاية الصهيونية، واستغلاله لتمرير أحكام جاهزة في النطاقَين التاريخي والراهن.

---

[94] تحقيق: "عندما يجتمع التاريخ والطهي في الطبق"، **يديعوت أحرونوت**، 2018/12/12، انظر:
https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5424409,00.html (باللغة العبرية)
כשהיסטוריה וקולינריה נפגשים בצלחת

[95] موتي إفراتي، رحلة الأبرياء إلى أرض إسرائيل – مارك توين في القدس تدريب متقدم للمرشدين رقم 19، رابطة المرشدين في إسرائيل، 2021/5/3، انظر: https://itga.org.il/3-5-2021 (باللغة العبرية)
מוטי אפרתי، מסע התמימים לארץ ישראל- מרק טווין בירושלים השתלמות מורי דרך מספר 19, יום שני 3/5/2021- אגודת מורי הדרך בישראל

وبين العيّنات التي أمكن رصدها بهذا الصدد؛ في أيار/ مايو 2009، بعد نحو خمسة أشهر من تولي الرئيس باراك أوباما Barack Obama مقاليد الحكم في الولايات المتحدة، قام نتنياهو بزيارته الأولى إلى ساكن البيت الأبيض الجديد، وقدّم له نسخة من كتاب توين "الأبرياء في الخارج"، أعطتها دار كنيرت للنشر زمورا بيتان Kinneret Zmora-Bitan Dvir، لنتنياهو، كان قد ترجمها للعبرية عوديد بيلد، وأُرفقت بنسخة إنجليزية تمّ إنتاجها خصيصاً تحتوي على حلقات كتاب توين، حتى يقدمها نتنياهو للرئيس أوباما.[96]

صورة عن خبر صحيفة هآرتس Haaretz حول هدية نتنياهو لأوباما

מתנת רה"מ לאובמה: יומן מסעות מארק טווין בפלשתינה

ויומها أبدى الوزراء المرافقون لنتنياهو داخل الطائرة قبل هبوطها في واشنطن، آراءهم حول أهمية الهدية ورمزيتها؛ فمن جانب، اعتقد وزراء بأنها ستكون مثل هدية الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز Hugo Chávez إلى أوباما، خلال مؤتمر قمة دول أمريكا الوسطى والجنوبية، حيث قدم شافيز كتاباً ألّفه إدواردو جالينو Eduardo Galeano من أوروغواي بعنوان "عروق مفتوحة في أمريكا اللاتينية: خمسة قرون من نهب قارة Centuries of Plundering a Continent Open Veins in Latin America: Five"، وذلك في رسالة ضمنية من شافيز إلى أوباما بأنه يرفض سياسات الهيمنة والتحكم الأمريكية. وقال هؤلاء المرافقون لنتنياهو إن إهداء كتاب مارك توين إلى أوباما سيوضح له حقيقة العرب والمسلمين، مثلما أوضح كتاب

---

[96] مايا سيلع، هدية رئيس الوزراء لأوباما: يوميات رحلة مارك توين في فلسطين، **هآرتس**، 2009/5/18، انظر:
https://www.haaretz.co.il/news/politics/1.1261277 (باللغة العبرية)
מתנת רה"מ לאובמה: יומן מסעות מארק טוויין בפלשתינה

جالينو حقيقة رأي اللاتينيين في أمريكا، كما أنه سيزيد توزيع كتاب مارك توين، مثلما زاد توزيع كتاب جالينو، وكان، قبل ذلك، كتاباً مجهولاً. يضاف إلى هذا أن كتاب مارك توين يذكر أن اليهود كانوا في القدس قبل بداية الحركة الصهيونية التي دعت اليهود للهجرة إلى فلسطين لتأسيس وطن لهم هناك، ويؤكد أيضاً "صحة" الشعار الصهيوني: "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن"، وأن فلسطين قبل اليهود، واعتماداً على ما جاء في الكتاب، كانت أرضاً جرداء ومن دون سكان. ولكن، في الجانب الآخر، عارض وزراء إسرائيليون هذه الهدية، وقالوا إن في إهدائها استفزازات كثيرة، ليس فقط الاستفزازات الواردة في الكتاب عن العرب والمسلمين، بل أيضاً، استفزاز أوباما بسبب الإساءة في كتاب مارك توين إلى العرب والمسلمين، فهناك مسلمون في عائلة أوباما.[97]

وتساءل الصحفي الإسرائيلي توم سيجيف Tom Segev، في مقال في صحيفة هآرتس، عما إذا كانت هدية نتنياهو إلى أوباما هذه هي الهدية الصحيحة بالفعل؛ فمارك توين يكره العرب والدين الإسلامي بشكل عام، وكان يعتقد أنهم قذرون برائحة كريهة، ومتعطشون للدماء، وجاهلون، ومتخلفون، وفاسقون، وخرافيون. وبرأي سيجف؛ هذا سبب وجيه لتقديم نتنياهو كتاب توين كهدية إلى أوباما، فنتنياهو والسفير الإسرائيلي في واشنطن مايكل أورين Michael Oren اعتقدا على ما يبدو أن باراك حسين أوباما سيحب ذلك.[98]

خلافاً للمعترضين على هذه الهدية، الذين ركزوا على أن الكتاب تضمن العديد من المشاهد والآراء العنصرية عن المسلمين والملونين، تحسباً لرد فعل أوباما، أصرّ نتنياهو عليها، لأنه كان معنياً بتقديم الصورة السلبية عن البلاد قبل تأسيس المشروع الصهيوني، والتركيز على الأصول والتشابهات والهوية المشتركة بين "إسرائيل" والولايات المتحدة.

وعلى هذا المسار، عُني نتنياهو في احتفال الذكرى التاسعة بعد المئة لوفاة مؤسس الصهيونية السياسية هرتسل، بإيراد بعض مواقف مارك توين وآرائه، وقال:

---

[97] محمد علي صالح، من مارك توين إلى أوباما: الكتاب الذي أهداه رئيس وزراء إسرائيل إلى الرئيس الأمريكي.. هل هو رسالة سياسية مغرضة؟، صحيفة **الشرق الأوسط**، العدد 11140، 2009/5/29، انظر:

http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=10992&article=521082#.W5TWsNQrLn8 (بتصرف ضئيل)

[98] موشيه جلعاد، لماذا كره مارك توين ما رآه في إسرائيل وعلاقته بنتنياهو، **هآرتس**، 2017/3/13. (باللغة العبرية)

عاش هرتسل وعمل في فيينا. وخلال مطلع القرن كانت في فيينا نهضة يهودية يصعب وصفها، وأكثر من يستطيع أن يشهد على هذه الحقيقة هو أعظم أدباء الولايات المتحدة مارك توين... إنكم تعرفون مارك توين بالطبع على أساس كتبه، ثم بفضل زيارته لأرض إسرائيل، غير أنه وصل إلى فيينا بعد ذلك بعقديْن تقريباً، وأقام فيها عاميْن والتقى بسكانها اليهود وبشخصيات مثل؛ فرويد [مؤسس علم النفس الحديث]، وماهلير [ملحّن]، وشنيتسلر [أديب]، وشينبرغ [ملحن]، وفيتغنشتاين [فيلسوف] الذي جاء من أسرة يهودية، وستيفان تسفايغ [أديب]، وفاسيرمان [الطبيب الباحث] الذي تعرفون الفحص الطبي [لتشخيص داء الزهري] الذي يحمل اسمه، وغيرهم من الأسماء اللامعة الكثيرة جداً. وسبق لمارك توين أن تعرّف إلى اليهود في الولايات المتحدة أيضاً، وشهد في فيينا الازدهار والمساهمة العظيمة التي قدمها اليهود للارتقاء بالبشرية، مما جعله يضع مقالاً رائعاً عن اليهود جاء فيه أن جميع الإمبراطوريات التي أقامها البابليون والكلدانيون والإغريق والرومان قد نشأت بصوت مدوّ ثم سقطت، إلا أن اليهودي ظل مكبَّلاً بيده خلف ظهره لكنه ينتصر. إن اليهود لا يشكلون إلا 1% من مجموع أبناء البشر لكن لا يستطيع أحد غلبتهم. وكان مارك توين قد كتب هذا الكلام بعد لقائه اليهود.

وأضاف نتنياهو:

غير أن مارك توين كتب أيضاً كلاماً آخر. إنه تساءل: ما هي معاداة اليهود هذه؟ وكان رئيس بلدية فيينا في تلك الفترة كارل لويغير، الذي كان الأب الروحي لهتلر، يشجّع هذه المعاداة رغم مساهمة اليهود المشار إليها. وبالتالي تساءل مارك توين: ترى، ماذا يريد هؤلاء من اليهود؟ فهم يقدمون مساهمة كبرى للبشرية، وعليه ما الداعي لمعاداتهم؟، ولم يجد الإجابة على ذلك. غير أن أولئك اليهود الناجحين والأخيار والعباقرة [الذين عاشوا في فيينا في ذلك العصر] لم يطرحوا هذا السؤال قط. وكان هناك شخص واحد دون غيره [قاصداً هرتسل] طرح السؤال وكان أيضاً عبقرياً، لكنه لم يكن—بخلاف زملائه المثقفين والمبدعين—واهماً بل كان صاحب رؤية، لا بل إن أي رؤية أو نبوءة أو إملاء أو اقتراح تقدم به يستند إلى تحليل عقلاني وحتى قاسٍ لواقع الأمور. إنه لم ينسق وراء التمنيات، بل قرأ الواقع قراءة صائبة. وكان أن نشأت علاقة من الصداقة بين مارك توين وهرتسل، توطَّدت لدرجة جعلت توين يرافق هرتسل لمشاهدة مسرحية وضعها هرتسل عن أسوار

الغيتو. ويقول هرتسل في تلك المسرحية: إن سقوط أسوار الغيتو واندماج اليهود في المجتمع الأوروبي الراقي لن يخففا من مشاعر العداوة تجاههم التي ستزداد أكثر فأكثر.[99]

وفي جلسة خاصة للكنيست Knesset، البرلمان الإسرائيلي، بمناسبة الذكرى الخمسين لما يسمى "توحيد القدس"، أي استكمال احتلالها سنة 1967، قال رئيس الحكومة الإسرائيلية نتنياهو:

> ماذا كان يوجد هنا في يروشلايم، ماذا كان يوجد أثناء الفترة حين بدأنا عودتنا إليها، مع بوادر النهضة القومية؟ لا شيء بالكاد. هل كانت هناك فوق هذه الأرض خلال القرن التاسع عشر مملكة متطورة، أو ربما عاصمة فلسطينية عامرة؟.. يجب قول الحقيقة: يروشلايم، مثل أرض إسرائيل برمتها، كانت بمثابة لواء هامشي وخاوٍ داخل الإمبراطورية العثمانية. ودون سلسلة طويلة من الرحالة المشهورين انطباعاتهم من الأرض المقدسة: دوشاتوبريان، دو لامارتين، مارك توين، هرمان ملفيل، فضلاً عن أشهر الكُتاب والشعراء في تاريخ البشرية. إنهم لم يكونوا وكلاء يعملون نيابة عن الصهيونية، وإنما قاموا برواية ما شاهدوه، وكلهم جميعاً رسموا الصورة ذاتها تماماً: الأرض مقفرة، غالبيتها لا يتخللها سوى العراء الرتيب.. ثم حدث التغيير الكبير بوصول الهجرة اليهودية.[100]

تبين هذه الأمثلة أن نتنياهو اتكأ على مارك توين لتمرير بعض مفردات الخطاب الصهيوني الدارج حول اليهود والصهيونية، ولا شكّ أن هذا الخطاب معني بتقديم إنشاءات أيديولوجية بطريقة ذرائعية، افترائية ومضلِّلة... كيف؟

---

[99] خطاب رئيس الوزراء نتنياهو في الاحتفال الرسمي لذكرى بنيامين زئيف هرتسل، موقع مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية، 2013/6/27، انظر:
https://www.gov.il/BlobFolder/news/eventhertzel270613/he/mediacenter_speeches_documents_hertzel270613_2.doc (باللغة العبرية)
נאום ראש הממשלה נתניהו בטקס האזכרה הממלכתי לבנימין זאב הרצל

[100] تصريحات رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو في جلسة خاصة للكنيست بمناسبة ذكرى توحيد القدس، مكتب رئيس الحكومة الإسرائيلية، 2017/5/24، انظر:
https://www.gov.il/BlobFolder/news/speechkneset240517/he/mediacenter_speeches_documents_speechkneset240517_1.docx (باللغة العبرية)
דברי ראש הממשלה בנימין נתניהו בישיבה מיוחדת של הכנסת לציון יובל לאיחודה של ירושלים

دوافع التوظيف الصهيوني لمارك توين:

وجدت الصهيونية ضالتها في مزاعم مارك توين حول "أرض الكتاب المقدس" و"الفراغ السكاني" و"الخواء الحضاري" لفلسطين، وسواها من المقولات التي طرحها في كتابه عن رحلته. ودرج الصهيونيون على اعتماد ما كتبه توين كشهادة على "عدالة" مشروعهم الاستيطاني في فلسطين. وبشأن ما كتبه مارك توين عن اليهود، أوردت آلة التنشئة والدعاية الصهيونية ذلك في منحى التغني بعظمة اليهود، استناداً إلى المكانة الرفيعة لتوين في المنظور الأدبي العالمي.

بخصوص عملية المطابقة بين الرواية التناخية والجغرافيا الفلسطينية، ومع أن الصهيونية تبنت وعززت هذه العملية، التي اعتمدها اليهود، بمختلف مستوياتهم وشرائحهم، ومع أن العملية كانت أمراً تقليدياً واعتيادياً في منظور رجال الدين والرحالة والمفكرين المسيحيين، بيد أن تلك المطابقة التي أجراها توين كانت في الحسابات الصهيونية ذات نكهة مميزة، وجرى إبرازها كحقيقة ناجزة، على خلفية شخصية مارك توين، البروتستانتي غير المتدين، لما له من مكانة أدبية كبيرة، بحيث تتسلل مفاهيمه ومصطلحاته تلقائياً إلى أذهان قرائه، حتى لو امتزجت بالسخرية والتهكم، لأن القصد هو تسويق "ارتباط اليهود بأرض إسرائيل"، وإشاعة فكرة "أرض الميعاد" بين هؤلاء القراء.

ولدى تحليل مسألة "الفراغ السكاني"، التي ادعاها توين، والتي اقتنصتها الاقتباسات الصهيونية، يمكن ملاحظة أن الصهيونيين الأوائل رسموا مشهداً مغرضاً لفلسطين، يظهرها "أرضاً خاوية، مهملة، صحراء..."، تنتظر المعمّرين اليهود، بتجاهل يكاد يكون تاماً للوجود العربي في البلاد، بحيث يبدو للآخرين أن المسألة لا تنطوي على إلحاق ظلم بأحد، طالما أنه غير موجود، لأنه دون تجاهل العربي، تتعرض المقولات الصهيونية للاهتزاز بعنف ثم للسقوط مبكراً. ولهذا تبنت الصهيونية ادعاء أحد زعماءها الأوائل؛ يسرائيل زنجويل Israel Zangwill بأن "فلسطين أرض بلا شعب ينبغي أن تعطى لشعب بلا أرض". وتوجهت الدفعة الأولى من الصهيونيين إلى فلسطين بالروح نفسها التي كان الأوروبيون يتوجهون بها إلى الأقطار والمناطق التي عدّوها خالية من السكان.[101]

[101] إبراهيم عبد الكريم، **تهويد الأرض وأسماء المعالم الفلسطينية (دراسة ودليل)** (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999)، ص 18-19.

وفي مواجهة سقوط مزاعم توين وسواه حول "الفراغ السكاني" لفلسطين، كانت تنشأ فوراً "آلية Mechanism" أخرى تنطوي على الاعتراف بأن هذا الفراغ لا يعني عدم وجود سكان، ولكن يعني أن هؤلاء السكان يفتقرون إلى صفات البشر العاديين، بل هم يشكلون جماعات غير متحضرة أو متوحشة في البلاد المقدسة التي تنتظر أبناءها!! ومما يذكر هنا أن نظرية "الخواء الحضاري" كانت وليدة الفلسفة السائدة في أوروبا إبان ظهور الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، أي النظرة التي كانت ترى كل رقعة من الأرض خارج نطاق أوروبا خالية، ليس من أهلها طبعاً، بل من حيث كونها مؤهلة للنشاط التمديني والاستعماري. ويمكن التقدير أن الصهاينة الأوائل تبنوا نظرية "الخواء الحضاري" هذه بجميع مضامينها العنصرية، فنظروا لشعب فلسطين كجماعات في مستوى متدن من سلم الحضارة والرقي، لا علاقة له بالبلاد. ومن الواضح هنا أن مقولة "الرسالة التمدينية" التي تبنتها الصهيونية لا تختلف عن الدعاوى التي نادى بها العنصريون الأوروبيون، حول الجنس الآري المتفوق الذي يملأ الفراغ الحيوي، وحول "عبء الرجل الأبيض".[102]

سردية مارك توين في المنظور الديني اليهودي:

لاقت نظرات مارك توين المشوهة لفلسطين قبولاً جارفاً ونشوة لدى الأوساط الدينية اليهودية، التي استخدمت إسقاطات نصية تلائم تلك النظرات، وفسرت "خراب" فلسطين الذي تحدَّث عنه توين كعلامة على صحة أحكام الرواية التناخية، وعلى النبوءة الرؤيوية المستقبلية للبلاد لدى استيطانها من قبل اليهود.

فقد نشر موقع "نوفيت موريشت" التراثي الديني، قراءة بشأن صفة "القفر" في سردية توين، تضمنت عبارة أسمتها "نبوءة" من التناخ هي: "فَيُشَاهِدُ أَبْنَاؤُكُمْ مِنَ الأَجْيَالِ الْقَادِمَةِ، وَالْغُرَبَاءُ الْوَافِدُونَ مِنْ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ بَلاَيَا تِلْكَ الأَرْضِ وَمَا يُصِيبُهَا الرَّبُّ بِهِ مِنْ أَمْرَاضٍ. إِذْ تُصْبِحُ جَمِيعُ الأَرْضِ كِبْرِيتاً، مُحْتَرِقَةً لاَ زَرْعَ فِيهَا وَلاَ نَبَاتَ وَلاَ عُشْبَ"، تثنية 29: 22-23. وذكرت هذه القراءة أن مارك توين

[102] المرجع نفسه، ص 20-21.

كان مجرد واحد من الأجانب الذين "نفّذوا الأمر"، وجاء من "أرض بعيدة" للتعرف على هذه الأرض عن قرب، التي ضربها غضب الله. وتابعت القراءة: "نحن الجيل الذي رجع إلى أرض الآباء ووجدناها فارغة ومقفرة، تكاد تكون خالية من السكان، ولو كان يسكنها شعب أجنبي، لما كان حلم العودة إلى صهيون أن يتحقق، لذلك فإن لعنة الأرض هي أيضاً نعمة عظيمة".[103]

وعلّق الحاخام د. يوئيل بن نون Yoel Ben Nun יואל בן נון حول ذلك أيضاً فكتب:

> استمراراً لمسيرة الرامبان (موشي بن نحمان – نحمانيدس)، الذي قرأ "اللعنة" كنبوءة، تحققت هذه الآيات أيضاً على وجه التحديد من قبل سائح من أرض بعيدة هو مارك توين، كما هو موصوف في كتابه، الذي تحدث عن أرض مقفرة في منطقة لن يقف فيها عشرة أشخاص في طريقك. ولكن بعد ثمانية أعوام، تم إنشاء مدرسة مكفيه يسرائيل الزراعية، وبعد اثني عشر عاماً، تم إنشاء بيتح تكفا.[104]

وفي تفسير للحاخام نتنئيل أرييه Nathaniel Aryeh נתנאל אריה، المعلم في المدرسة الدينية يشيفات هجولان Yeshivat Hagolan، يعزو "قفر أرض إسرائيل" إلى تشتت اليهود، حيث يرى أن "لعنة المنفى حالة صعبة ومريعة لشعب مشتت ومضطهد، وأن الأرض بعده ستكون مقفرة، وأن أرض إسرائيل تحافظ على الولاء لشعب إسرائيل". ويقتبس الحاخام أرييه من "التناخ": "وَأُحَوِّلُ مُدُنَكُمْ إِلَى خَرَائِبَ، وَأَجْعَلُ مَقَادِسَكُمْ مُوْحِشَةً، وَلاَ أَبْتَهِجُ بِرَائِحَةِ تَقْدِمَاتِ سُرُورِكُمْ... وَأَجْعَلُ الأَرْضَ قَفْراً فَيَرْتَاعُ مِنْ وَحْشَتِهَا أَعْدَاؤُكُمُ السَّاكِنُونَ فِيهَا... وَأُشَتِّتُكُمْ بَيْنَ الشُّعُوبِ، وَأُجَرِّدُ عَلَيْكُمْ سَيْفِي، وَأُلاحِقُكُمْ، وَأُحَوِّلُ أَرْضَكُمْ إِلَى قَفْرٍ وَمُدُنَكُمْ إِلَى خَرَائِبَ،" لاويين 26: 31–33. ويستشهد الحاخام أرييه بتعليق للرامبان موشيه بن نحمان — نحمانيدس Moshe ben Nachman (Nachmanides/Ramban)، هو أن هذه "اللعنة" في الحقيقة بشرى عظيمة سارّة

---

[103] مارك توين بعد موسى، موقع نوفيت موريشت، 2009، انظر:
https://www.nofitmoreshet.org (باللغة العبرية)
מארק טווין בעקבות משה، נופית מורשת، תשע"ח

[104] يوئيل بن نون، هل النبوءة تحققت؟ اسأل مارك توين، موقع التناخ، انظر:
http://www.hatanakh.com/en/node/30182 (باللغة العبرية)
הרב ד"ר יואל בן נון، הנבואה התקיימה? תשאלו את מרק טווין

لـ"إسرائيل"، وأن بلادنا لا تقبل أعداءنا وستكون خراباً للأعداء الذين لن يجدوا فيها سلاماً. أي أن يهوه لا يقول: "بما أننا نفينا من أرضنا الآن يأتي الأعداء ويشبعون فيها". بل يبين أنه "حتى الأعداء الذين يتبعونك لن يجدوا رضا فيها، فأرض إسرائيل مثل الأم تنتظر أبناءها، وهي لا تعطي ثمارها لشخص غريب".[105]

وبتعليل الحاخام أليعيزر أهرونسون Eleazar Ahernson אלעזר אהרנסון لما كتبه مارك توين؛ إن "القفر" بالتحديد "ليس لعنة بل نعمة، فهو دليل على أن أرض إسرائيل ملك لشعب إسرائيل، وحقيقة المنفى، حيث لا يوجد شعب إسرائيل في أرضه، هي حقيقة مشوهة وفاسدة".[106]

ويشمل درس ديني للناشئة، بعنوان "الصلة بين الشعب والأرض"، شرحاً بأن "أرض إسرائيل كانت مقفرة بشهادة الكاتب الأمريكي مارك توين الذي زارها، وهكذا نرى ظاهرة مدهشة هي أن الوعد الإلهي يتحقق في الواقع، فنحن نرى بوضوح كيف تتواصل الأرض مع الناس، وكأنها امرأة تنتظر زوجها لفترة طويلة وطوال هذا الوقت تظل مؤمنة به، فقد حافظت الأرض على إيمانها بشعب إسرائيل لمدة ألفي عام ولم تثمر للآخرين".[107]

وينوه الباحث الإسرائيلي موشيه حبيب Moshe Habib משה חביב إلى أن مارك توين،

> لم يرَ فلسطينيين هنا، ولا بساتين خضراء، ولا قرى عربية، ولا مدناً صاخبة... لا شيء... رأى ووصف المستنقعات والكوليرا والحمى والرمال والخراب المطلق... أرض مقفرة لا حياة فيها وموت تتربص في كل مكان... أرض البكاء... ومن دون قصد، يثبت مارك توين لنا نحن اليهود وجميع المؤمنين بالتوراة

---

[105] نتنييل أريه، بشائر الربيع في تقدم الشتاء، موقع يشيفات هجولان، 2013، انظر:
http://www.yba.org.il/sites/yba/UserContent/files/1376w.pdf (باللغة العبرية)
הרב נתנאל אריה، בשורת אביב בעיצומו של חורף

[106] أليعيزر أهرونسون، وأعداؤك تائهون عليها، موقع يهولون، 18 أيار 5766 عبري، 2016، انظر:
http://www.yholon.co.il/?p=1881 (باللغة العبرية)
הרב אלעזר אהרנסון، ושממו עליה אויביכם

[107] العلاقة بين شعب وأرض إسرائيل، درس في اللغة العبرية، انظر: http://www.hadracha.org/he/vw.asp?id=1807 (باللغة العبرية)
הקשר בין עם לארץ ישראל، שיעור בשפה עברית

في العالم حقيقة نبوءاتها عندما عرفت حتى قبل ثلاثة آلاف عام وصول مارك توين إلى أرض إسرائيل، وحتى أنها عرفت ما سيقوله عنها.[108]

وأكد الحاخام يشاي أفيعيزير Yishai Aviezer ישי אביעזר، المدرّس في المدرسة الدينية العليا في كريات شموئيل بحيفا، أنه:

> يجدر التمسك بأوصاف مارك توين الذي وصل إلى أرض إسرائيل، ونقل لصحيفته لعنة أرض إسرائيل، وهذا ما قالته التوراة، حيث كانت كتابة توين عن الدمار صحيحة، وحسب التناخ؛ هذا تدبير جيد لشعب إسرائيل، بأن الأعداء لن يجدوا السلام في أرضه، وستكون مقفرة. والبلد النائم الذي رآه توين لم يفتح عينيه إلا بعد عودته إلى بلده. ولم يعد بإمكانه رؤية المستعمرات الأولى التي تسترد الأرض وتهزم الملاريا؛ بتاح تكفا، رشون لتسيون، رحوفوت، خضيرة، جديرا، روش بينا (פתח תקווה, ראשון לציון, רחובות, חדרה, גדרה, ראש פינה) هذه كانت الأضواء الصغيرة التي ظهرت في الظلام الرهيب لأرض إسرائيل. ويمكن للمرء أن يتعلم عن اللعنات القاسية للشعب والأرض، خاصة النعم العظيمة التي جاءت بعد قرن من نشر توين لانطباعاته.[109]

وذهب الحاخام شموئيل رابينوفيتش Shmuel Rabinowitz שמואל רבינוביץ، حاخام الحائط الغربي—المبكى—والأماكن المقدسة، إلى أن وصف توين الذي زار البلاد قبل سنوات قليلة من "الهجرة الأولى" لحركة حوفيفي صهيون "חובבי ציון = أحباء صهيون Lovers of Zion"، يتوافق تماماً مع "النبوءة" المذكورة في التوراة، فبعد بضع سنوات من زيارته بدأ الناس بالعودة إلى أرضهم، وأزهروا صحاريها، وقاموا ببناء المستوطنات والمدن وتطوير الزراعة الحديثة، وبهذه الطريقة تمّ استكمال نبوءة موشيه: "وَيَأْتِي بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ

---

[108] موشيه حبيب، "النكبة" احتيال القرن العشرين، موقع موشيه حبيب، 2015/10/2، انظر:
http://moshehaviv.com/modules/blockblog/blockblog-post.php?post_id=6 (باللغة العبرية)
משה חביב.. "הנכבה" תרמית המאה ה – 20

[109] يشاي أفيعيزر، مارك توين لتوبيخ دستوري، موقع صحيفة **الصوت اليهودي**، 2017/5/23، انظر:
http://www.hakolhayehudi.co.il (باللغة العبرية)
פרשנותו של מארק טוויין לתוכחת 'בחוקותי', אתר הקול היהודי

إِلَى الأَرْضِ الَّتِي امْتَلَكَهَا آبَاؤُكَ فَتَمْتَلِكُهَا، وَيُحْسِنُ إِلَيْكَ وَيُكَثِّرُكَ أَكْثَرَ مِنْ آبَائِكَ"، التثنية 30: 5. وهكذا تحققت هذه النبوءة بالجهود الكبيرة التي بذلها المهاجرون إلى الأرض.[110]

وبالطريقة ذاتها، يدّعي الباحث زئيف فولك זאב ולק،[111] أنه "بعد نحو 15 عاماً من رحلة توين إلى أرض إسرائيل المقفرة، بدأت الهجرة الجماعية للرواد اليهود، وكانوا هم الذين حظوا بامتياز تنفيذ كلمات النبي إشعياء": "الرَّبُّ يُعَزِّي صِهْيَوْنَ وَيُعَزِّي خَرَائِبَهَا، وَيُحَوِّلُ قَفْرَهَا إِلَى عَدْنٍ وَصَحْرَاءَهَا إِلَى جَنَّةِ رَائِعَةٍ"، أشعياء 51: 3.

في ضوء هذه التفسيرات الإسقاطية للنصوص التناخية على المشهد الذي رسمه مارك توين لفلسطين، لوحظ أن الأوساط الدينية اليهودية وجدت في تساؤله "أيمكن للعنة الرب أن تحمّل بلداً؟"، إثباتاً على تحوّل الأرض من الخراب إلى الازدهار لدى "عودة" اليهود المشتتين إليها، وزوال اللعنة، وبذلك يفترض أن هذه الأوساط تبدي امتنانها لمارك توين الذي كان دون أن يقصد شاهداً على "نبوءة الخراب الذي سيعقبه العمران".

تعليلات وانتقادات إسرائيلية لسردية مارك توين:

كأي سردية أخرى، من البديهي أن تظهر تعليلات للعوامل والظروف المتعلقة بالكاتب ونصه. وبشأن سردية مارك توين، هناك من ميّز، ضمن التعليلات الإسرائيلية، بين نوعين من كتّاب قصص السفر والرحلات، هما: "الرحّالة أو المسافر العادي"، و"الرحّالة أو المسافر المختلف". فالأول هو الذي يسعى إلى كتابة ما مرّ به، والثاني، المختلف، هو الذي يريد أن يكون أصيلاً ومغايراً للذين سبقوه، بل إنه يكتب أحياناً معرضاً الأدبيات القديمة، لجعل كتابه مميزاً وجذاباً للقراء، ويستخدم الحيل الأدبية مثل؛ إنشاء الصور النمطية، والمفارقات، والمبالغة، والمحاكاة الساخرة. وحسب الباحث الإسرائيلي يعقوب شافيت Yaakov Shavit יעקב שביט، ادعى الصحفي مارك توين أنه وصف "الحقيقة العارية" كما رآها بأم عينيه، على عكس الذين كتبوا قبله، وهذه النظرة النقدية هي التي سمحت له بالاختلاف عن بقية رفاقه المسافرين، وكتب

---

[110] شموئيل رابينوفيتش، القفر والإزهار والخطوة التالية، موقع صندوق ميراث الحائط الغربي، 2017، انظر:
https://www.thekotel.org/parasha/nizavim_2017.aspx (باللغة العبرية)
הרב שמואל רבינוביץ – רב הכותל המערבי והמקומות הקדושים, שממה, פריחה – והשלב הבא

[111] زئيف فولك، زيارة مارك توين في الأرض الخالية، أسماء، 2010/12/25. (باللغة العبرية)

توين كتابه بأسلوب الفكاهة الساخرة، وحتى المبتذلة في بعض الأحيان، وإحدى العبارات المعروفة عن توين هي: "لا يوجد شيء أقدس من مزحة". ونوّه بعض المهتمين الإسرائيليين إلى وجوب تذكر أن توين لم يقم بجولة في البلاد طولاً وعرضاً، بل انضم إلى رحلة منظمة ركزت على الأماكن المسيحية: الناصرة، وبحر الجليل، والقدس، وبيت لحم. ولم يقم توين بزيارة السهل الساحلي وهشفلا **השפלה**، المناطق المنخفضة غرب القدس. كما ينبغي الانتباه إلى أن توين زار البلاد في ذروة الصيف، عندما كانت المناظر الطبيعية لوطنه في منطقة نهر المسيسيبي دائمة الخضرة. وفي الواقع، من أجل فهم تشهيرات لتوين، يجب فحصها ليس من منظور صهيوني ولكن من منظور الثقافة الأمريكية التي تشربها.[112] ففلسطين لدى توين هي "مرآة تعكس الثقافة الأمريكية، والسكان المحليون هم انعكاس شرقي للهنود من الغرب".[113]

وردّاً على تساؤل؛ ما الذي حدا بمارك توين إلى رسم الأرض المقدسة بخطوط قبيحة ومحبطة، بينما وصفها السائحون من قبله بألوان جميلة؟، يورد الباحث الإسرائيلي زئيف فولك، ثلاثة عوامل في إجابته؛

> أولها: لقد جاء مارك توين من منطقة نهر المسيسيبي، وفيرة المياه والاخضرار والمزهرة على مدار السنة، ورأى على النقيض من ذلك، أن أرض إسرائيل دُمرت وخربت، وأنه جاء إليها في ذروة الصيف، عندما كانت الحرارة شديدة والغطاء النباتي، الذي كان أخضر، قد جف بالفعل وذبل. وثانياً: زار توين الأماكن المقدسة فقط للمسيحية، ومعظمها في المناطق القاحلة، ولم يصل إلى الأماكن الأكثر خصوبة مثل السهول وهشفلا. والثالث: بينما جاء السائحون الأوائل إلى الأرض المقدسة بدوافع دينية ومسيحية، وكانوا متحمسين للغاية لمسيرتهم فيها، بوصفها أرض الحليب والعسل، في المقابل، كان توين صحافياً ساخراً وناقداً، كره النفاق، وحارب التقاليد وأحب تحطيم الأساطير.[114]

---

[112] مايا دواني، حملة تشهير مارك توين في أرض إسرائيل، **يديعوت أحرونوت**، 2010/1/31. (باللغة العبرية)

[113] يورام سوريك، مارك توين – نذير الصهيونية أم سائح متغطرس؟، موقع القناة الإسرائيلية العاشرة، 2009/2/20، انظر: http://10tv.nana10.co.il/Article/?ArticleID=617938 (باللغة العبرية)

יורם שורק، מרק טווין – מבשר הציונות או תייר מתנשא?

[114] زئيف فولك، زيارة مارك توين في أرض الخالية، أسماء، 2010/12/25. (باللغة العبرية)

ووفق التقديرات التفسيرية ذاتها؛ "بسبب الفجوة بين ما رآه توين وما تخيل أنه سيراه، ركّز كتابه بشكل أساسي على تحطيم الأسطورة".[115] وبرأي آخرين، "لم يكن الأمر مجرد استهزاء توين في موقفه من الأرض؛ فالفكرة المركزية التي ترافق تقاريره هي الفرق بين التقدم الأمريكي وواقع الأرض المقدسة"،[116] حيث؛

> قارن مارك توين، مثل أسلافه، بين القصص التي نشأ عليها والواقع المخيب للآمال الذي وجده، فلم تكن مقارنته فقط بين الماضي والحاضر في الأرض المقدسة، بل أيضاً بين الأرض المقدسة والولايات المتحدة، فقد شدد توين على صغر مساحة تلك الأرض بالمقاسات الأمريكية، مما قلل من قيمتها في نظر قرائه، مبيناً أن عرض أرض إسرائيل!! بين 40–60 ميلاً، أي أقل من ثلث ولاية ميسوري. كما قارن توين بين جمال المناظر الطبيعية من حيث المساحات الخضراء والألوان التي يبدو فيها المشهد في الولايات المتحدة مرة أخرى أفضل؛ "بحر الجليل المجيد (بحيرة طبرية) أصغر من بحيرة تاهو (Lake Tahoe – الممتدة على طول الحدود بين ولايتي كاليفورنيا ونيفادا)، وبالكاد يصل إلى ثلثي حجمها، والمياه العكرة له لا تعادل تلميحاً خافتاً للوضوح المتوهج لمياه تاهو؛ والتلال المنخفضة الصلعاء المصفرة من الصخور والرمال، لا تشبه القمم الشاهقة التي تعانق بحيرة تاهو".[117]

وبين المتابعات الإسرائيلية لما كتبه مارك توين في رحلته، كان هناك تسطيح للكتابات الفلسطينية حول هذه الرحلة، دون تحليل ما يخص دوافع توين ومراميه ومصداقيته، وورد في هذا الصدد أنه في مواجهة وصف توين لفلسطين بأنها أرض فارغة ومقفرة، "يبين الفلسطينيون أن توين جاءها في فترة الحرّ، وكانت زيارته قصيرة واشتملت على الأماكن المقدسة فقط، ولا يقدم إحصاءات عن التركيبة السكانية والإنتاج الزراعي، ولهذا لا يتم التعامل مع وصفه كمصدر مؤهل، كما أنه يقارن أرض فلسطين بالأراضي الأمريكية الخصبة وهذا غير مُنصِف".[118]

---

[115] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، أصدقاء جورج، 201/11/1. (باللغة العبرية)

[116] تحقيق: "الشمس كانت ستتخطى أرض إسرائيل لو كانت لديها القدرة على الاختيار"، المكتبة الوطنية الاسرائيلية. (باللغة العبرية)

[117] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

[118] زئيف جاليلي، فلسطينيون على مارك توين، موقع زئيف جاليلي، 2004/10/29، انظر:
http://www.zeevgalili.com/2004/10/306 (باللغة العبرية)
זאב גלילי، הפלסטינים על מארק טוויין

يضاف إلى هذا، أنه ينبغي عدم تجاهل وجود نزعة في نص توين لحالة "التمركز حول الذات"، التي أظهرت الطريقة التي قدم بها توين نفسه ومرافقيه مدى فخرهم ببلدهم الأصلي:

كانت الرحلة ابتكاراً مثيراً بالنسبة لنا، لذلك أطعنا في سلوكنا الغرائز الطبيعية الكامنة فينا، ولم نكبح أنفسنا بأي سلوكيات أو أعراف، وأوضحنا دائماً أننا أمريكيون – أمريكيون! ولم نقلل من أهميتنا بأي شكل من الأشكال... كان الناس يحدقون بنا في كل مكان، ونحدق بهم. وبالنسبة للجزء الأكبر منهم، تمكنّا من جعلهم يشعرون بأنهم صغار جداً، أصفار، وقبل أن ننهي شؤوننا معهم، وضعنا قوة عظمة أمريكا عليهم حتى هزمناهم.[119]

وبعد كل الصور القاتمة التي كوّنها مارك توين في فلسطين، والتي وضعها بجانب صور بلاده، كان من الطبيعي ألا يخفي توين فرحته عندما وصل إلى شاطئ يافا ورأى السفينة تنتظر عودته:

نزلنا من خيولنا للمرة الأخيرة، وليس بعيداً عن الشاطئ رأينا السفينة راسية في البحر، ووضعت علامة تعجب هنا، وكنا سعداء للغاية".. وفي الواقع، كان الدرس الذي تعلمه توين من رحلته هو أنه لا يوجد مكان أفضل من وطنه الولايات المتحدة، وكان حاضراً في ذهنه الاعتقاد بأن أمريكا هي العالم الجديد، ورائدة التقدم التي من شأنها الحلول محل العالم القديم المحتضر والمنحط.[120]

ويمكن القول إن "التمركز حول الذات" أسهم في نشوء ما يمكن تسميته "أثر توين Twain Effect"، بمعنى أنه كانت لكتاباته مفاعيل كبيرة على التصورات الأمريكية للأرض المقدسة؛ في ظلِّ تطور عصر السفر الجديد إلى شرق البحر المتوسط. فبفعل تأثيره الكبير في القراء، أصبح كتابه بالنسبة للسائحين الجدد دليلاً غير رسمي للأمريكيين في الأرض المقدسة، إلى جانب الكتاب المقدس. ومن أبز الأمثلة على ذلك، المقطع الساخر حول البكاء المفرط على قبر الإنسان الأول، داخل كنيسة القيامة، الذي أصبح أحد أشهر المقاطع في كتابه: "قبر الإنسان الأول! كم هو مؤثر، هنا بالضبط، في أرض أجنبية، بعيداً عن الوطن وعن كل أصدقائي الذين يهتمون بسلامتي، اتكأتُ على العمود وانفجرتُ في البكاء. لا عيب بنظري أن أبكي، راكعاً تحت وطأة الحزن وخيبة الأمل". وقد لوحظ أنه جاء العديد من السياح إلى قبر الإنسان الأول بعد

---

[119] تعريف بكتاب مارك توين، **رحلة مباهج في الأرض المقدسة**، تبوز، 2013/4/18. (باللغة العبرية)

[120] مايا دواني، "مارك توين ورحلة الجنازة الكبرى إلى الأرض المقدسة،" **يديعوت أحرونوت**، 2010/2/3. (باللغة العبرية)

نشر الكتاب، ولكن هذه المرة لم يكن الغرض هو رؤية المكان المقدس فقط، بل أيضاً رؤية المكان الذي ذكر توين أنه بكى فيه، وفي هذه الحالة أصبح توين مصدراً للحالة التي غيّرت موقعاً مقدساً إلى معلم سياحي حديث.[121]

وباعتقاد أحد أدلاء السياحة الإسرائيليين: كانت زيارة توين إلى البلاد محفورة في الوعي التاريخي لقرائه، ورسخت لديهم صورة لفلسطين في القرن التاسع عشر، ممزوجة بالسخرية والتهكم، وتمكنت قصصه من إشعال خيال قرائه، وتشجيعهم على الخروج واستكشاف العالم.[122]

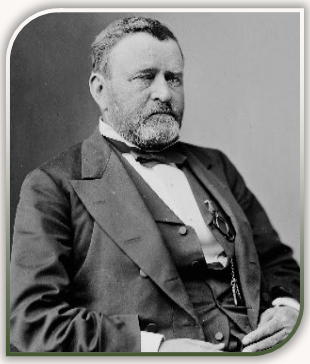

يوليسيس جرانت

وبيّن العديد من الأمثلة على "أثر توين"، أنه بعد عشر سنوات من رحلته، أي في سنة 1877، استقبلت فلسطين الرئيس يوليسيس جرانت Ulysses S. Grant، بعد انتهاء ولايته، الذي زار القدس حاملاً معه ثلاثة كتب فقط هي: الكتاب المقدس، ودليل للسياح، وكتاب رحلة مارك توين.[123]

ربما تبدو التعليلات الإسرائيلية حيادية، لكونها تدرج سردية مارك توين في سياقيها الذاتي والموضوعي، بالتوقف عند الشكل العام دون تفكيك المضمون، الذي يتعين فيه الأخذ بالحسبان الدوافع الشخصية والبنية الذهنية والفكرية لتوين. ووفق هذا التحديد، نظر بعض المهتمين الإسرائيليين لسردية توين بعيون انتقادية، وأكثر من هذا برزت إدانات لها من منطلق معايير يتعذر التجديف ضدها، كي لا يقعون في مرمى الإدانة لأحكامهم.

فمثلاً، حسب البروفيسور مالات شامير Milette Shamir מלאת שמיר، من قسم اللغة الإنجليزية في جامعة تل أبيب وخبير في الأدب الأمريكي وكتابات توين:

> تم اختراع الواقعية الأمريكية في كتاب "الأبرياء في الخارج"، ومن المهم أن تتذكر أنه خلال القرن التاسع عشر، ظهر أكثر من 500 منشور أمريكي لزيارة الأراضي المقدسة، غالبيتها لا تستحق

---

[121] المرجع نفسه.

[122] موطي حاي إفراتي (دليل)، **رحلة الأبرياء إلى المدينة المقدسة**، الجزء الثاني، رابطة المرشدين في إسرائيل، 2017/4/1. (باللغة العبرية)

[123] يورام سوريك، مارك توين – نذير الصهيونية أم سائح متغطرس؟، موقع القناة الإسرائيلية العاشرة، 2009/2/20. (باللغة العبرية)

القراءة، لكن أصحابها جميعاً أتوا إلى هنا بنوع من الهوس للعثور على مواقع وأصداء الكتاب المقدس، بينما بنى توين على حقيقة أن قرّاءه يعرفون الكتب الأخرى، وأنه يمكنه عمل محاكاة ساخرة لها، ويشعر قراؤه أن توين سيأخذهم في الرحلة الحقيقية، وكان كتابه أول كتاب سياحي يعلن أنه نقيض لعدد من كتب السياحة، كتاب يدعي الأصالة، وهذه لحظة مهمة لأنها اللحظة التي تم فيها اختراع السياحة.

وبتقدير شامير:

إن الاستخدام السياسي لأوصاف توين لإثبات أن البلاد كانت مقفرة وخالية من السكان قبل الهجرة اليهودية الكبرى هي أمر شرير، فقد قيل: توين يصف أرضاً مقفرة بها عدد قليل من السكان، وهذا التصريح الذي له أهمية سياسية بالطبع يتجاهل حقيقة أن توين أتى إلى البلاد التي غاب عنها كثير من سكانها بسبب الصعوبات الاقتصادية الشديدة التي أجبرتهم على العيش لفترة في مصر ودول أخرى، كما عانت المنطقة بأكملها اقتصادياً من نهاية الحرب الأهلية الأمريكية، وارتفعت أسعار القطن بشكل كبير في مصر وفلسطين. ولا يرى توين السياق ويستخدم كليشيهات مثل العزلة ووحشية السكان، وهذه صورة بعيدة عن الاكتمال.

ويشير شامير أيضاً إلى صوت متفاوت للراوي في الكتاب؛ "فهناك صوت محايد، صوت أمريكي يضحك على نفسه، وصوت أقل متعة لأمريكي مستشرق متعجرف ينظر إلى البدو والعرب على أنهم هنود. إنه يغري اليوم أن نطلق عليه صوت (الرئيس الأمريكي) ترامب". ويتابع شامير: "رغم مرور 150 عاماً على رحلة مارك توين، فلا تزال سلسلة قصصه المشينة عن مناظر البلاد الطبيعية وسكانها تحظى بشعبية حتى الآن، ولكن لا يزال من الصعب استيعابها، وحتى الجدل حول إذا ما كانت البلاد فارغة قبل الهجرة، كما وصفها، لم يحسم بعد". ويجزم شامير أن "توين كان من نواح كثيرة مسافراً سيئاً، وهو ساخر ومتغطرس وعنصري في بعض الأحيان".[124]

بالمحصلة، يوافق الكثيرون على أن كتاب مارك توين "لو كان سِجلاً لرحلة علمية محترمة، لكان هناك سطر حول جو جاد وعميق وغامض بشكل ملحوظ"، حسب عبارات توين نفسه في مقدمة كتابه،

[124] موشيه جلعاد، لماذا كره مارك توين ما رآه في إسرائيل وعلاقته بنتنياهو، **هآرتس**، 2017/3/13. (باللغة العبرية)

فالمقدمة التي كتبها توين في سنة 1869 في سان فرانسيسكو هي—وفق إحدى الشهادات—نوع من إخلاء المسؤولية، يُنصح من خلالها أن ترى المادة بأكملها بأنها ترفيهية ممتعة، وليست وثيقة تاريخية تؤخذ على محمل الجد كحجة.[125]

خاتمة:

لم تكن سردية مارك توين حول رحلته إلى فلسطين مادة عادية، ليس فقط لكونه أشهر كاتب أمريكي، بل أيضاً بسبب تركيزه على الأرض المقدسة التي تتمتع بحساسية خصوصاً لدى المسيحيين الأمريكيين، وبسبب تعمّده تضمين كتابه طروحات تعدّ بالنسبة للفلسطينيين خصوصاً، وللعرب والمسلمين عموماً، بالغة الخطورة، يمكن لخصمهم استغلالها. فقد أصدر توين أحكاماً، وفق قولَبَة نمطية للواقع، بنى كثيراً منها على صياغات تعكس خصائص شخصيته، بما فيها من ميول وأهواء. ومن المحتمل أن يكون هذا الأمر ناجماً عن تشوه واضطراب ذهني لديه، يقوم على نظرة فوقية أو عنصرية حيال العرب والمسلمين، أسهم في تشكيلها اطلاعه على دراسات للمستشرقين، ورجال الدين المسيحيين المتزمتين، وسواهم.

وفي جوانب أخرى متعددة، كان توين يعالج الموضوعات التي يثيرها بأسلوب خاص. وانطلاقاً مما كتبه، تعددت مظاهر الاحتفاء الصهيوني به، تلبية لدوافع ذاتية حكمت توظيف كتابه بما يخدم المشروع الصهيوني، وكانت هناك تفسيرات في المنظور الديني اليهودي لسردية مارك توين، بالإضافة إلى تعليلات وانتقادات إسرائيلية لهذه السردية.

لقد اختار توين طريقة للتعبير عما رآه في فلسطين تتوافق مع أوصاف سوداوية، تبنتها الصهيونية لاحقاً منذ تأسيسها حتى الآن. ولو أن سردية توين بقيت في إطارها التاريخي أو الأدبي لكانت أي مواجهة مع مقولاتها هي نوع من الديماغوجيا Demagogy، التي تلتصق بأي حالة صراع مع الماضي. ولكن ما دامت هذه المسألة قد وظفتها الصهيونية سياسياً وعملياً، فلا شكّ أن كتاب مارك توين يسهم في عملية نزع

[125] روتم مِلينكي، ضيف آخر: إحياء القفر، أصدقاء جورج، 2014/11/1. (باللغة العبرية)

الشرعية عن الفلسطينيين، التي تتجلى في العديد من التوجهات والممارسات الصهيونية، والتي يراد لها أن تعفي المشروع الصهيوني من الظلم الذي ألحقه بهم.

ولعل من أبرز ما يُطرح في هذا المقام، هو ضرورة التصدي العلمي والموضوعي لكل الإنشاءات المغرضة؛ الرامية لتسويق الصور والمفاهيم المتحيّزة، التي تجافي الحقائق وتسخّرها في المشاريع التي تعتدي على مقدرات الأمة، وتناهض حقوقها وتطلعاتها.